

معارك عربية إسلامية خالدة



دار القلم العربي

مَعَارِكُ عَرَبِيَّةٍ خَالِدَةٌ

١٧

معركة حطين

إعداد

عبد القادر شيخ إبراهيم

دار القلم العربي



منشورات
دار القلم العربي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان النشر :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب: 78 هاتف: 2213129 فاكس: 2212361 +963 21

البريد الإلكتروني: qalam_arabi@naseej.com E-mail :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معركة حطين

تمهيد

قبل أن أبدأ كتابة أحداث معركة حطين، وضعتُ المراجع التاريخية أمامي وجعلتُ أقلبُ صفحاتها وأتفحصُها بدقة وإمعان، فوجدت نفسي أمامَ مادةٍ كبيرة، خصبة وغنية جعلتني مضطراً لذكر أهم الأحداث التاريخية التي سبقتها، وإلقاء الضوء على الأسباب التي شجعت الصليبيين وسمحت لهم بدخول البلدان الإسلامية واجتلال مواقع هامة واستراتيجية في قلب الوطن العربي، ثم أدّى إلى إشعال ما يُسمى بالحروب الصليبية، فما هي تلك الأسباب...؟

إن من أهم تلك الأسباب انشقاق الخلافة الإسلامية إلى شطرين متعادين : الخلافة العباسية ببغداد، والخلافة الفاطمية بمصر ثم تبع ذلك قيام دويلات كثيرة متناحرة، فكان من

الطبيعي أن يؤدي هذا الانشقاق إلى ضعف الدولة الإسلامية، الأمر الذي جعل أعداء المسلمين يطمعون بهم ويعتدون عليهم، فكان الصليبيون أول منافس حقيقي لهم في المنطقة، بل أشدّ ضراوة، وأكثر عدواناً وخطراً من غيرهم، فلقد استطاعوا بعد حروب طاحنة، ومعارك دامية أن يحتلوا أربعة مواضع هامة في قلب الوطن العربي، ومنها أخذوا يشتون إغاراتهم الغادرة والوحشية على المسلمين وهي: بيت المقدس^(١)، وأنطاكية^(٢)، والرّها^(٣)، وطرابلس^(٤)، ولعل مسؤولية ذلك تقع على الحكام المسلمين أنفسهم الذين طحتهم الخلافات الطائفية، والصراعات المذهبية، وتكالبهم على الحكم والسلطة، وبخاصة ما كان يجري في زمن الحكام الفاطميين بمصر، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

التعريف بصلاح الدين

في البدء نحب أن نتعرف على البطل المؤمن الملك الناصر صلاح الدين ونلقي الضوء على جزء من حياته ليزداد الموضوع شمولية وجمالا، فأقول:

(١) بيت المقدس: مدينة قديمة عظيمة معروفة أشهر من أن تعرف.
(٢) أنطاكية: مدينة قديمة بالشام تقع غربي مدينة حلب، وتبعد عنها مسيرة يوم وليلة وهي تابعة اليوم لتركيا استلبتها حين أسكنت لواء اسكندرون عام ١٩٣٩ م.
(٢) الرّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ، سميت باسم الذي استحدثها، وهو الرّها بن التّندي بن مالك بن دعر، والنسبة إليها رهاوي. انظر معجم البلدان.
(٤) طرابلس: مدينة عظيمة ومشهورة، وهي ثاني أكبر مدن لبنان، تقع على البحر المتوسط في الساحل السوري.

أولاً- اسمُهُ ونسبته :

هو أبو المظفر يوسفُ بنُ أيوبَ بنِ شاذي بنِ مروانَ.
وذكر ابنُ خُلُكَّانَ : ورأيتُ مدرجاً رتبةَ الحسنُ بنِ غريبِ
ابنِ عمرانَ الجرشيُّ يتضمنُ أنَّ أيوبَ بنَ شاذي بنِ مروانَ بنِ
أبي علي بنِ عنترةَ بنِ الحسنِ بنِ علي بنِ أحمدَ بنِ أبي علي بنِ
عبدِ العزيز بنِ هذبة بنِ الحصينِ بنِ الحارثِ بنِ سنانِ بنِ عمرو
ابنِ مرة بنِ عوف بنِ أسامة بنِ يهسَ بنِ الحارثِ صاحبِ
الحمالة ابنِ عوف بنِ أبي حارثة بنِ مرة بنِ ثُشبة بنِ غيظِ بنِ
مرة بنِ عوف بنِ سعدِ بنِ ذبيانِ بنِ بغيضِ بنِ ريثِ بنِ غطفانِ
بنِ سعدِ بنِ قيسِ عيلانِ بنِ الياسِ بنِ مُضَرَّ بنِ نزارِ بنِ معدِّ بنِ
عدنانَ.

ثمَّ رَفَعَ بعد هذا في النسبِ حتى انتهى إلى آدمَ ^(١) عليه السلام،
والله أعلم.

قال ابنُ كثيرٍ : والذي عليه جمهورُهم أنه لا يُعرفُ بعد
شاذي أحدٌ في نسبِهِم. وأغربُ بعضُهم وزعم أنهم من سلالةِ
مروانِ بنِ محمدٍ آخرِ خلفاءِ بني أمية، وهذا ليس بصحيحٍ ^(٢).

(١) وفيات الأعيان.

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧١.

ثم ذكر ابن خلكان بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي
بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح المتنبي، ويُعرف بالخراساني، وفيه
يقول من جملة قصيدته.

شرق الجوُّ بالغبار إذا سا ر علي بن أحمد القمقل^(١)

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحماله، فهو
الذي حمل الدماء بين عبي وذيان، وشاركه في الحماله
خارجة بن سنان أخو هرم بن سنان، وفيهما قال زهير بن أبي
سلمى المزني قصائد، منها قوله :

على مكثريهم حق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل
وهل ينبئ الخطي إلا وشيحه وتغرس إلا في منابتها النخل^(٢)

^(١) القمقام والقماقم من الرجال : السيد الكثير الخير، الواسع الفضل، ويقال سيد قماقم :

لكثرة عيوبه. ^(٢) الخطي : الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع باليمامة، وهو خط هجر تنسب إليه
الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند، فتقوم به، وليس الخطي الذي هو الرماح من نبات
أرض العرب.

وقال زهير يمدح هذين الرجلين اللذين سعي للإصلاح بين عبي وذيان، وإخماد نار الحرب
بينهما، ولدفع الشر والفساد، ورأب الصدع، ولم الشمل، وتوحيد الكلمة، ودفعاً من
مالهما ديات قلى القبيلتين:

يخينا لنعم السيدان وجدتما
تداركتما عسا وذيان بعد ما
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا
فأصبحتما على غير موطن
عظيمين في غلبا فقد هليتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تقاتوا ودقوا بينهم عطر منشم
بمال ومعروف من القول نسلم
بعيدين ليها من عقوق ومأثم
ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

يقول ابن خلّكان : هذا آخر ما ذكره في المدرج، وكان قد قدّمه - أي صاحب المدرج - إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسَمِعَهُ عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعيهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة، والله أعلم، انتهى ما نقلته من المدرج.^(١)

ثم قال : ورأيتُ في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال : وكان المعزُّ إسماعيلُ بن سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن ادّعى نسباً في بني أمية وادّعى الخلافة.

وسمعتُ شيخنا القاضي بهاء الدين عُرف بابن شداد يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك وقال : ليس لهذا أصل أصلاً.^(٢)

ولست أدري أن السلطان رحمه الله تعالى أنكر ادّعاء النسب في بني أمية، أم أنه أنكر ادّعاء المعزُّ إسماعيل بن سيف

(١) وفيات الأعيان لابن خلّكان . ج ٧ ص ١٤٠-١٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤١.

الإسلام بن أيوب الخليفة...؟ وعلى أي حال فإن النسب الذي ساقه ابن خلكان نقلاً عن المدرج نسب عربي أصيل، إذ أن معظم الأسماء المذكورة أسماء عربية وعلى هذا فإن نسب السلطان صلاح الدين عربي أصيل، لا سيما وأن أحد أجداد صلاح الدين وهو الحارث بن عوف بن أبي حارثة المتقدم ذكره والملقب بصاحب الحماله لأنه حمل مع خارقة بن سنان ديات القتلى من عبس وذيان كان عربياً أصيلاً، ولعب دوراً كبيراً وحاسماً في الإصلاح بين القبيلتين المتقاتلتين، وما دعاه إلى ذلك إلا نفسه الأبية، وشهامته العربية، ونبله وأخلاقه السنية، والدماء العربية التي تجري في عروقه، فلم يرتض لنفسه أن يرى أبناء جنسه وبني جلدته يقتلون لسبب تافه أدى إلى إشعال نار الفتنة، وقطع رابطة الأخوة، وحل أوامر القرى...!!

والذي أثبتته المراجع العربية، وأكثر الروايات المعتمدة أن السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى كان كردياً، وإلى هذا يشير ابن خلكان في وفيات الأعيان فيقول في حديثه عن نسب صلاح الدين وأصله: (اتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من (دوين) بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة

أَرَانَ وبلاد الكرج، وأنهم أكرادٌ رَوَادِيَّةٌ، بفتح الراء والسواو، وبعد الألف دالٌ مهملةٌ ثم ياءٌ مشاةٌ من تحتها وبعدها هاءٌ، وهي قبيلةٌ كبيرةٌ من الأكراد، وقال لي رجلٌ فقيهٌ عارفٌ بما يقول، هو من أهلِ دُوين: إنَّ على بابِ دُوينَ قريةً يقالُ لها (أجدانقان) بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدالِ المهملة وبعد الألفِ نون مفتوحة وقاف مفتوحة وبعد الألفِ الثانية نونٌ أخرى، وجميعُ أهلِها أكرادٌ رَوَادِيَّةٌ، ومولدُ أيوبَ والدِ صلاح الدين بها، وشاذي أخذ ولديه أسدُ الدين شيركوه، ونجمُ الدين أيوبَ وخرجَ بهما إلى بغدادَ، ومن هناك نزلوا تكريتَ، وماتَ شاذي بها، وعلى قبره قبةٌ داخلَ البلدِ.^(١)

وقال ابنُ الأثيرِ في تاريخهِ الصغيرِ الذي صَنَّفَهُ للدولة الأتابكية ملوكُ الموصلِ، في فصلٍ يتعلقُ بأسدِ الدين شيركوه، ومسيره إلى الديارِ المصريةِ فقال: كان أسدُ الدين شيركوه، ونجمُ الدين أيوبُ وهو الأكبرُ ابنا شاذي من بلدِ دُوينَ، وأصلُهُما من الأكرادِ الرَواديةِ قد قَدِمَا العراقَ، وخدمَا مجاهدَ الدين بهروز بن عبدِ الله الغياثي شحنةً^(٢) بالعراق، وكان مجاهدُ

(١) وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١٤١.

(٢) شحنة العراق: قال الأزهري شحنة الكورة من فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان. انظر لسان العرب، أو هي ذخيرة الحرب.

الدين خادماً رومياً، أبيض اللون تولى شحنةً بالعراق من جهة
السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي،
وكان مجاهد الدين صاحب همة في عمل المصالح الجليلة وعمارة
البلاد، واسع الصدر والصبر في البذل والإنفاق، بنى في بغداد
رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً، وأنفق عليه أموالاً كثيرة.

وبهروز : لفظ أعجمي، معناه يوم جيد، على التقليم
والتأخير على عادة كلام العجم. ^(١)

وسواء أكان أصل السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى
عربياً أم كردياً فإن هذا لا يغير من معدنه وجوهره، ولا يزيد
في قدره ولا ينقص منه شيئاً، وحسبه أنه رجل مسلم، مؤمن
بالله ورسوله، يغار على دينه ووطنه، ويتفجر قوة وإيماناً، وغيره
وصلابة لدينه وعقيدته، ويفخر بانتسابه إلى الإسلام، ويعتز
بانتماؤه لزمرة المؤمنين الصادقين المخلصين في إيمانهم وجهادهم
في سبيل الله تعالى.

والإسلام الذي احتضن أبناءه، وألف بين قلوبهم لم يؤمن
بالعصية، ولم يفرق بين عربي وعجمي، وأبيض وأسود،
وأحمر وأصفر إلا بالتقوى والعمل الصالح، ورفع شعار المساواة
بين أبنائه على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم، وجعل

^(١) المرجع السابق.

الأصل في ذلك قول الحق تبارك وتعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبير)^(١) .

وما أجل قول القائل : ...!!

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكِدتُ بأخصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرتُ أحد لي نبياً

تعزيرُ موقفِ نجم الدين أيوب

وأخيه لدى عماد الدين زنكي

لقد رأى مجاهد الدين بهروز في نجم الدين أيوب صدقاً وإخلاصاً ووفاءً، وشجاعةً وبلاءً حسناً، وسلوكاً مستقيماً، ورأياً صائباً، وعقلاً راجحاً، فجعله دُردار تكريت^(٢) . ودُردار: لفظٌ عجمي، معناه حافِظُ القلعة، وهو الوالي.

فلما وقع الخلاف بين بهروز من جهة، وبين عماد الدين زنكي صاحب الموصل ومسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي من جهةٍ أخرى، وقصداً حصار بغداد^(٣)، وذلك في

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٢) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، تقع غربي نهر دجلة. انظر معجم البلدان.

(٣) بغداد: مدينة عظيمة معروفة ومشهورة، وهي عاصمة العراق، بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور.

أيام المسترشد الذي أرسل إلى قراجا صاحب بلاد فارس وخوزستان^(١) يستنجد به عليهما، فأتاهما فهزمهما، فأما زنكي فقد قصد تكرير، فاستقبله نجم الدين أيوب وخدمه وقدم له السفن فعبّر بها دجلة وتبعه أصحابه، فلما بلغ ذلك بهروز عاتبه وأنكر عليه فعله وقال له : كيف ظفرت بعدونا فأحسنست إليه وأطلقتة ...!!...؟؟ ثم حدث أن أسد الدين قتل رجلا من تكرير لكلام جرى بينهما، فغضب مجاهد الدين بهروز من ذلك، فأرسل إليهما فأخرجهما من تكرير، فقصدا عماد الدين زنكي، وكان إذ ذاك صاحب الموصل، فاستقبلهما استقبالا حسنا، وأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وجعلهما من جملة جنده الذين يثق بهم ويعتمد عليهم.

فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك^(٢) جعل نجم الدين أيوب واليا عليها، فلما قتل عماد الدين زنكي قام بالملك بعده ولده سيف الدين غازي بن زنكي الذي حفظ عهد أبيه وتمسك بنجم الدين أيوب، ثم حدث أن وقعت أحداث جسام لا حاجة لذكرها لعدم مناسبتها، اضطر نجم الدين أيوب على إثرها أن يرحل إلى دمشق ليقيم بها في خدمة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى الذي قرب منه نجم الدين أيوب،

(١) خوزستان : اسم لجميع البلاد الملبوءة بخوزا مثل خوزان، خوزيان، خوز ... الخ.
(٢) بعلبك : مدينة قديمة مشهورة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وهي اليوم من أعمال لبنان.

وأكرمه غاية الكرم، وجعله قائد جيوشه لما رأى من جرأته
وشجاعته ومآثره في الحروب والمعارك، أما أسد الدين شيركوه
فقد انتقل إلى الديار المصرية لإنجاد (شاور) كما سيأتي إن شاء
الله تعالى.

ثانياً - لقبه :

كَانَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يُلقَّبُ بِالسُّلْطَانِ
النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَالبِلَادِ الشَّامِيَّةِ،
وَالْفَرَاتِيَّةِ وَاليَمَنِيَّةِ.

وَكَانَ الْاَوْسَطُ بَيْنَ اِخْوَتِهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ التَّعْرِيفِ، فَسِرُّهُ
أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تَذَكَرَ، وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى تَوْضِيحٍ وَتَنْبِيهِ
وَبَيَانٍ، فَالزُّهْدُ وَالْوَرَعُ، وَالتَّقْوَى وَالتَّرَفُّعُ، وَالْعَدْلُ وَالسُّمُوُّ،
كُلُّ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْعَظِيمَةِ نِجَازٌ يَسِيرٌ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَخَصَائِصِهِ
وَمَزَايَاهُ، وَحِينَ تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَيْهِ فِي الزَّحَامِ لَنْ تَرَى مَا يَدْعُوهَا
لِلتَّلَبُّثِ وَالتَّأَمُّلِ، إِنَّمَا سَتَجِدُهُ وَاحِدًا مِنَ الَّذِينَ تَخَلَّقُوا بِخُلُقِ
الْقُرْآنِ، وَتَأَدَّبُوا بِأَدَبِ الْإِسْلَامِ، وَعَمَلُوا بِنَهْجِهِ، وَكَأَنَّهُ وَاحِدٌ
مِنَ الصَّحْبِ الْكَرَامِ بَعَثَ مِنْ جَدِيدٍ أَشْعَثَ أَغْوَرٍ لَيْسَ فِي
مَلْبَسِهِ، وَلَا فِي شَكْلِهِ الْخَارِجِيِّ مَا يُمَيِّزُهُ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ
ﷺ بِشَيْءٍ وَكَأَنَّهُ قَدِيسٌ تَفَرَّقَ كُلُّ شَيْطَانٍ الْإِغْرَاءِ أَمَامَ عَيْنَيْهِ
وَعِزُّوفِهِ وَتَوَاضَعِهِ وَزَهْدِهِ وَعَمَلِهِ بِنَهْجِ الْإِسْلَامِ، وَتَطْبِيقِ حُدُودِهِ
وَأَحْكَامِهِ وَعَدَالَتِهِ...!!

ثالثاً - أخلاقه وتواضعه :

أجمعت كتب التاريخ والروايات التي تتحدث عن سيرة صلاح الدين العطرة وأخلاقه العالية : أنه كان كثير التواضع واللفظ، قريباً من الناس، رحيم القلب، رحب الصدر، واسع الحلم والإحسان، وكان يحب العلماء وأهل الخير، ويُقرّبهم منه ويحسن إليهم، وكان يميل إلى الفضائل، ويستحسن الأشعار الجيدة، ويردّها في مجالسه، حتى قيل : إنه كان كثيراً ما ينشد قول أبي منصور الحميري :

وزارني طيف من أهوى على خنر
فكدت أوقظ من حولي به فرحاً
من الوشاة وداعي الصبح قد هضا
وكاد يهلك ستر الحب بي شعفاً^(١)
ثم اتبعت وآمالي تخيل لي
نيل المني فاستحالت غبطتي أسفاً

وقيل : إنه كان يحب قول ابن المنجم المعري الأصل، المصري الدار والوفاة وهو في خضاب الشيب، ولقد أحسن فيه :
وما خضب الناس البياض لقيح
وأقبح منه حين يظهر ناصلة^(٢)
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازلته
هذا ... وسوف أذكر المزيد من قوله الشعر، وما قيل فيه
إن شاء الله تعالى في خاتمة الحديث.

(١) الشعف والشفف بالعين والسين : شدة الحب وارتفاعه إلى أعلى موضع من القلب.
(٢) ناصله : نصل الشيء من موضعه، خرج منه.

رابعاً - مولدُهُ :

اتفقُ أربابُ التواريخُ وأصحابُ السِّراجِمِ أن مولدَ السلطانِ صلاحِ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى كان سنةً اثنتين وثلاثين ومئسمائةً بقلعةٍ تكريتَ بالعراق، وذلك حين كان أبوه وعمُّه في خدمةٍ مجاهدِ الدينِ بهروز، ويبدو أن نجمَ الدينِ أيوبَ وأخاهُ أسدَ الدينِ شيركوه لم يقيما بعد ولادة صلاحِ الدينِ إلّا يسيراً، لأنهما أُخرجَا من تكريتَ كما تقدّم فأتصلا بعمادِ الدينِ زنكي بالموصلِ، فأكرمَهُما وأحسنَ وفادَهُما.

ولما حاصرَ عمادُ الدينِ زنكي دمشقَ وبعدها بعلبكَ وأخذها رتبَ فيها نجمَ الدينِ أيوبَ واليًّا، وذلك في أوائلِ سنةٍ أربعٍ وثلاثين.^(١)

وقال ابنُ خَلِّكانَ في موضعٍ آخر : ثم أخبرتني بعضُ أهلِ بيتهم، وقد سألتُهُ : هل تعرفُ متى خرجوا من تكريتَ ... ؟ فقال : سمعتُ جماعةً من أهلينا يقولون : إنهم أُخرجوا منها في الليلةِ التي وُلِدَ فيها صلاحُ الدينِ، فتشاءموا به وتطهروا منه، فقال بعضهم : لعلَّ فيه الخيرَ وما تعلمون ... !! فكان كما قال، واللهُ أعلمُ.^(٢)

(١) و (٢) وفيات الأعيان ج ٧، ص ١٤٤-١٤٥ بتصرف.

سببُ خروجِ نجمِ الدينِ أيوبَ وأخيه شيركوه من تكريت :

علمنا مما تقدّم أن شاذي بن مروان والد نجم الدين أيوب كان من قرية دوين ومن أبناء أعيانها، وأشراف أهلها، وكان له صاحب يُقال له مجاهد الدين بهروز، وكان ظريفاً لطيفاً، حسنَ المجالسة، مُحبباً، وخبيراً بتدبير الأمور، وكان بينه وبين شاذي بن مروان صداقة حميمة بلغت حدّ الأخوة، ولقد صدف أن حدث لبهروز قضية في قريته دوين تمسُّ بنحويته وأخلاقه، وقد ذكرها ابنُ خلّكان فقال :

(فجرت لبهروز قضية في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك لأنّه أثمهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها فخصاه، فلما مثّل به لم يقدر على الإقامة بالبلد، فقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه ... إلى أن قال : واتفق موت اللالا فجعله السلطان مكانه، وأرصده لمهامه، وسلّم إليه أولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شاذي يستدعيه من بلده ليشاهد ما صار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما حوّلّه الله تعالى، وليعلم أنّه ما نسيه.

فلما وصل إليه بالغ في إكرامه والإنعام عليه.
 واتفق أن السلطان رأى أن يُسير المجاهد المذكور إلى بغداد
 والياً عليها ونائباً عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية
 في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شاذي
 المذكور، فسار إليه هو وأولاده، وأعطى السلطان لبهرورز قلعة
 تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شاذي المذكور،
 فأرسله إليها، فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولّى مكانه ولده
 نجم الدين أيوب المذكور، فنهض في أمرها، وشكره بهروز
 وأحسن إليه، وكان أكبر سنّاً من أخيه أسد الدين شيركوه، ثم
 اتفق أن إحدى النساء خرجت من قلعة تكريت لأمر ما، ثم
 عادت فمرت بنجم الدين وأخيه وهي تبكي، فسألاها عن
 سبب بكائها، فأجابتهما أن رجلاً تعرّض لها وهي داخلة من
 باب القلعة، فقام شيركوه فأخذ الحربة فضربه بها، فقتله،
 فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى بهروز يخبره بما
 جرى، فوصل إليه جوابه يقول فيه :

"لأَيُّكُمَا عَلِيٌّ حَقٌّ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ مُتَأَكِّدَةٌ، مَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَكَافِئَكُمَا بِجَالَةٍ سَيِّئَةٍ تَصْدُرُ مِنِّي فِي حَقِّكُمَا، وَلَكِنْ أُرِيدُ مِنْكُمَا أَنْ تَتْرَكَا خِدْمَتِي، وَتَخْرُجَا مِنْ بَلَدِي، وَتَطْلُبَا الرِّزْقَ حَيْثُ شِئْتُمَا"

فلما وصلهما الجوابُ لم يستطيعا المقامَ بتكريرٍ، فخرجا منها وذهبا إلى الموصلِ فأحسنَ إليهما الأتابكُ عمادُ الدينِ زنكي، وبالغَ في إكراميهما، والإنعامِ عليهما كما تقدّم. ^(١)
خامساً - نشأته :

وُلِدَ السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى في بيتِ وارِفِ النعمة، مزهوٍ بالسيادة، مشهورٍ بالعزِّ والشرفِ والدينِ، معروفٍ بالجودِ والكرمِ والفضيلة.

في هذه البيئةِ المؤمنةِ نشأ صلاحُ الدينِ، وترعرعَ في كنفِ أبيهِ على النعمة، وغُذِيَ بها، وشبَّ تحتَ حمائلِها، مفطوراً على العلمِ والإيمانِ والأخلاقِ العظيمة، والمزايا النبيلة، والفضائلِ السامية، والآدابِ السنيةِ العالية.

^(١) وفيات الأعيان : ج ١ ص ٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧.

ولمّا ملك نور الدين محمودُ بنُ عمادِ الدينِ زنكي دمشقَ كان صلاحُ الدينِ في خدمتهِ مع أبيه، فكانتْ علاماتُ النجابةِ عليه ظاهرةً، ومخايلُ الذكاءِ عليه واضحةً، وأمّاراتُ السعادةِ عليه لائحةً، فكانتْ هذه السّماتُ تقدّمهُ من حالةٍ إلى حالةٍ، وتعرّزُ مكانتَهُ عند السلطانِ درجةً بعد أخرى، ونورُ الدينِ محمودُ زنكي يُدنيه منه، ويقربُهُ إليه، ويؤثّرُهُ عندهُ على غيره في كلِّ شيءٍ، ومنهُ تعلّم صلاحُ الدينِ حُبَّ الخيرِ، وفِعْلَ المعروفِ وعشقَ الجهادِ، بعد أن اتقنَ الرميَ والفروسيةَ، وأصبحَ من الفرسانِ المعدودين منذ تلك الفترةِ اتخذَ صلاحُ الدينِ صناعةَ الجهادِ في سبيلِ الله، وامتشقَ حسامَهُ وراح يبحثُ عن موقعةٍ يُظهرُ فيها مقدِرَتَهُ وجدارَتَهُ في الحروبِ والتّزالِ ومقارعةِ الفرسانِ، وكفاءَتَهُ في خوضِ المعاركِ وصناعةِ النصرِ والفتحِ بإذنِ الله تعالى.

سادساً - حروبهُ :

كانتْ أولى حروبِ صلاحِ الدينِ رجمهُ الله تعالى حين توجّهَ مع عمّه أسدِ الدينِ شيركوهَ إلى الديارِ المصريةِ لنجدةِ

(شاور بن مجير) وزير العاضد صاحب مصر، وكان شاور هذا قد هرب إلى مصر من الملك المنصور أبي الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب بفارس المسلمين الذي استولى على الدولة المصرية بعد أن قهر شاور المذكور، وأخذ منه الوزارة وقتل ولده الأكبر طي بن شاور، فتوجه شاور إلى الشام مستغيثاً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وذلك في شهر رمضان سنة ثمان^(١) وخمسين وخمسائة، فأغاثه محمود بن زنكي ووجه معه الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي على رأس جيش فيه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، وكان صلاح الدين كارهاً لهذا السفر، وكان لنور الدين محمود زنكي في إرسال هذا الجيش غرضان :

أحدهما : القيام بواجب إغاثة الملهوف وقضاء حق شلور الذي استغاث به ودخل عليه مستصرخاً، وهذا من سمات المؤمن،

ثانيهما : أنه أراد أن يعلم أحوال البلاد المصرية لأنه كان قد بلغه أنها ضعيفة من جهة الجند، وأحوالها الداخلية في غاية

^(١) وقيل : تسع وخمسين.

من التفكك والاختلال، فأراد أن يكتشف حقيقة ذلك، ويتأكد منه، فانتدب لهذا الأمر أسد الدين شيركوه لكونه شديد الثقة به، وكثير الاعتماد عليه لشجاعته وإخلاصه وأمانته ومعرفته بالأمور العسكرية والسياسية .

هذا ... وكان شيركوه قد جعل ابن أخيه صلاح الدين على مقدمة الجيش وشارور معهم، فدخلوا مصر وقتلوا ضرغام ابن عامر المذكور، واحتزوا رأسه وطاقوا به على رأس رمح، وبقيت جثته مكانها ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفنوه في موضع يقال له (بركة الفيل) وعاد شاور إلى منصبه في الوزارة.

معركة بلبيس

استقرت الأمور لشاور بن مجير بعد مقتل الضرغام، ووصل إلى هدفه، وحقق غايته، فغدر بأسد الدين شيركوه، واستنجد بالفرنج عليه فدخلوا الديار المصرية، وعاثوا فيها الفساد، وسرقوا الأموال، واعتدوا على النساء، وانتهكوا الحرمات، ولم يتركوا فاحشة أو رذيلة إلا فعلوها، واستحوزوا على كل شيء، وأسكنوا فيها جنودهم وأمرؤهم أن لا يدعوا قبيحة إلا فعلوها.

معركة حطين

وكانوا قد دخلوا مصرَ بِمُحَافِلٍ هائلةٍ جاؤوا إليها من كلِّ
 فجٍّ وناحيةٍ يصحبُهُم ملكُ عسقلان^(١)، فكانت (بلييس^(٢)) أولَ
 مدينةٍ دخلوها وحصروا فيها عدداً كبيراً من جنودِ أسدِ الدينِ
 شيركوه الذي غادرها قبل مجيء الفرنج وهو لا يعلمُ بمجيئهم،
 لا اعتقاده أنَّ الأمور قد استقرَّت بمقتلِ الضرغامِ وعودةِ شاور
 إلى الوزارة.

وكان الفرنجُ قد توغَّلوا في الديارِ المصريةِ، وقتلوا وأسروا
 الرجالَ، ونهبوا الأموالَ، واعتدوا على النساءِ، وخطفوا
 الأطفالَ، وقتلوا الرُّضَّعَ، وعاثوا في الأرضِ الفسادَ، واتَّخذوا
 من مدينةِ بلييسَ قاعدةً لهم، وجعلوها نقطةً لتجمُّعِ جنودِهِم،
 ثم انتقلوا منها إلى مدينةِ القاهرةِ فدخلوها واستباحوا ما فيها
 فعند ذلك أرسل العاضدُ يستنجدُ بنورِ الدينِ محمود زنكسي،
 ويطلبُ منه العونَ والنجدةَ، وبعثَ إليه بشعورٍ نسائه يقولُ له:
 أدركني واستنقذْ نسائي من أيدي الفرنج، والتزمَ له بثلاثِ

(١) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين،
 ويُقال لها عروس الشام ... انظر معجم البلدان.
 (٢) بلييس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. انظر معجم البلدان.

خراج مصرَ على أن يكون أسدُ الدين مقيماً بها عندهم، كما التزم له بإقطاعات كثيرة زائدة على الثلث.

فاستجاب له نور الدين، وشرع في تجهيز الجيوش، فلمَّا استشعر الوزيرُ شاور بوصول جيوش المسلمين أرسل إلى ملكِ الفرنج يستنجدُه وعرضَ عليه ألفَ ألفِ دينارٍ، ثم زادها ثمانمائة ألفَ دينارٍ أخرى.

فوافقهُ على ذلك، فانشمر مع جنوده ورجعوا من حيث أتوا خوفاً من جنود المسلمين، وقد قُدِّمَتْ لهم ألفُ ألفِ دينارٍ على طبقٍ من ذهبٍ جاءهمُ مكسباً من شاور مع أنَّهم كانوا سرجعونَ على أي حال حين علموا بمقدم المسلمين، وكان الأملُ يحدوهم، والطمعُ يغريهم بالعودة إليها مرةً ثانية، وأتَى لهم ذلك...!! (ويمكرون ويمكرُ الله والله خيرُ الماكرين) ^(١).

ثم شرعَ الوزيرُ شاور يجمعُ الأموالَ التي التزمَ بها للفرنجة، وضغطَ على الناسِ وضيَّقَ عليهم مع ما نالهم من الضيقِ والحريقِ والخوفِ، فلم يتمكن من جمعِ هذا المبلغِ الكبيرِ من

^(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

المال، إذ لم يجمع سوى خمسة آلاف دينار، وكان الناس في هذه الفترة يرسلون نور الدين زنكي، ويصفون له الأحوال المتردية من الناحية المالية، والظروف القاسية التي يمرون بها، ويطلبون منه أن يهب لنجدة بهم، فكانت كتبهم تأتيه متتالية، وفيها الإلحاح بطلب العون والنجدة.

عودة شيركوه إلي مصر مرة ثانية

علم نور الدين زنكي وأسد الدين شيركوه باتفاق شاور مع الفرنجة ومكاتبته إياهم، فخشيا على الديار المصرية أن تقع بيد الفرنجة، وتقع بطريقهم جميع البلاد، فتجهز أسد الدين وأنفذ معه نور الدين جيشاً فيه صلاح الدين عوناً لعمه أسد الدين.

وانطلق أسد الدين يقود ستة آلاف فارسٍ ومعه ابن أخيه صلاح الدين، فلما أصبحوا على مشارف مصر، ورأت الفرنجة راياتهم تحفّق، مقبلة عليهم وقع الخوف في قلوبهم، وخرجوا من مصر بخفي حنين لم ينالوا خيراً، ولم يصلوا إلى تحقيق أهدافهم.

أما أسد الدين وجنوده المؤمنون فقد أسرعوا الخطى ينهبون الأرض حتى دخلوا مدينة القاهرة وفرح بهم أهل مصر فرحاً شديداً وراحوا يستقبلونهم بالزغاريد والتهافت التي تعبّر عن فرحتهم وسرورهم بمجيئهم.

وأسقط في يد شاور، وتلاشت أحلامه وآماله، وصدم بصورة عنيقة فلم يتمكن من مقاومتهم أو منعهم من دخول مصر، ولم يجرؤ على إظهار ما في نفسه من الغدر والخيانة، لأنه رأى مع شيركوه جنوداً كثيرة، وعلم أن العاضد هو الذي استدعاه واستنجد به، كما أن حلفاء الفرقة قد خرجوا من مصر وتخلّوا عن نصرته، وأخذ يراوغ ويماطل في تسديد ما عليه لنور الدين من المال وإقطاع الجند، وهو مع هذا كان يذهب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه فيجتمع به، ويعده ويمنيه، ولا يفي له بشيء من وعوده، محاولاً كسب الوقت لتدبير مكيدة للإيقاع بأسد الدين ومن معه من القادة والأمراء والفرسان.

ثم عزم على أن يصنع طعاماً يدعوهم إليه ثم يقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له : والله لئن عزمت على هذا لأخبرن به شيركوه.

فقال له أبوه : والله لئن لم نفعل هذا لُنُقْتَلَنَّ جميعاً.
 فقال الكامل : صدقتَ، ولكن نُقْتَلُ ونحن مسلمون خيرٌ
 من أن نقتلَ وقد مَلَكْها الفرنجُ، فإنه ليسَ بينك وبينَ عودةِ
 الفرنجِ إلّا أن يسمعوأ بالقبضِ على شيركوه، وحينئذٍ لو مشى
 العاضدُ إلى نورِ الدين لم يرسلْ معه فارساً واحداً ويملكون
 البلادَ بأيسرِ أمرٍ.
 فأذعنَ شاور لرأي ابنه، وترك ما كان عزمَ عليه من
 استعمالِ الغدرِ والخديعةِ.

مقتل الوزير شاور

أدركَ الأميرُ أسدُ الدينَ مَطلَ شاور وتسويفَهُ وتلاعِبَهُ،
 وخشيَ منه الغدرَ، وأَنَّهُ يلعبُ به تارةً وبالفرنج تارةً أخرى،
 وأنَّ الفرنجَ متى وجدوا فرصةً والحالةُ هذه أخذوا البلادَ
 واستولوا على كلِّ شيءٍ، لذلكَ أيقنَ أسدُ الدينَ أَنَّهُ لا سبيلَ
 إلى الاستيلاء على البلادِ إلّا بقتلِ شادر، أو القبضِ عليه، وكان
 الوزيرُ شاور يعتقدُ أن أسدَ الدينِ شيركوه لا يجيدُ أمورَ
 السياسةِ، وأَنَّهُ يمكنُ اللعبُ به، ولذلكَ بعد أن جاءَ أسدُ الدينِ

إلى مصرَ نَجدةً لساور وساعدهُ بالعودةِ إلى الوزارةِ، وأنقذهُ من الصليبيين، تخلى عنه ساور ولم يحفلُ به وكانَ يتظاهرُ له بالحبّةِ والمودةِ، فأرسلَ إليه شيركوه يطلبُ منه الوفاءَ بوعدهِ، والقيامَ بالتزامهِ بتسديدِ نفقاتِ الجندِ ويقولُ له: قد طالَ مقامنا في الخيامِ، وقد ضجرَ العسكرُ من الحرِّ والغبارِ.

فأرسلَ إليه ساور ثلاثين ألفَ دينارٍ وقالَ له: خذها وانصرفْ بأمانِ الله.

ولكنَّ شيركوه كانَ له رأيٌ آخرُ في الموضوعِ، فقد كانَ يحلمُ بحكمِ مصرَ، والبقاءَ فيها، ذلكَ أنَّه قد شاهدَ البلادَ وتعرَّفَ عليها، وعرَّفَ أحوالها، وخفايا أمورِها، وأنها مملكةٌ بغيرِ رجالٍ، ودولةٌ بلا حكامٍ، ومسرحٌ للغدرِ والتآمرِ والافتتالِ، تدبُّ فيها الفوضى والتسيبُ، وتجري فيها الأمورُ بمجرَّدِ الإيهامِ والأهواءِ، فطمعَ بها، وقرَّرَ البغاءَ فيها، لذلكَ رفضَ عرضَ ساور وعبسَ في وجهه وقالَ له: إنَّ نورَ الدينَ أمره أن يبقى في مصرَ بعدَ عودةِ ساور إلى الوزارةِ، وأن يقسمَ واراداتِ مصرَ ثلاثةَ أقسامٍ:

قسم لشيركوه وجنده، وقسم لشارور وعسكره، وقسم
للخليفة العاضد، ولكن شارور أنكر أن يكون مثل هذا الاتفلق
تم بينه وبين نور الدين.

ولقد حدث أن اتفق صلاح الدين، وعز الدين جورديك،
وغيرهما من القادة والأمراء المخلصين على قتل شارور لأنهم
لمسوا منه الغدر والخيانة من مماطلته وتسويفه، وتصرفاته المريبة،
فأخبروا بذلك أسد الدين فنهاهم عنه.

هذا ... ولا يزال شارور يتردد كل يوم إلى مجلس أسد
الدين، وذهب إليه يوماً فلم يجده في خيمته، وكان قد ذهب
إلى زيارة قبر الإمام الشافعي رحمه الله بالقرافة، فقال شارور: غضي
إليه، وفي الطريق التقى به صلاح الدين وجورديك فاكتفاه
وألقيا عليه القبض وأخذه أسيراً بعد أن انفض عنه أصحابه
وهربوا من مواجهة صلاح الدين، هذا ... وقد تركاه مقيداً،
ولم يتمكنّا من قتله بغير إذن من نور الدين، أو أسد الدين،
فجعله في خيمة أسيراً، فأرسل إليهم العاضد يأمرهم بقتله،
فلم يتركوه لحظة، فقتلوه وجعلوا رأسه على رأس رمح،

وأرسلوه إلى العاضد الذي استدعى أسد الدين مباشرة، وكافأه
وخلع عليه خلع الوزارة وجعله مكان شاور، ولقبه الملك
المنصور أمير الجيوش.

أما الكامل بن شاور فقد دخل القصر هو وإخوته
معتصمين به، وذلك بعد مقتل أبيهم، فانقض عليهم بعض
الجندي فقتلوه، فلما أخبر شيركوه بمقتلهم حزن عليهم، لأنه
بلغه أن الكامل عارض أباه أن يغدر بشيركوه، فكان يقول:
وددت لو بقي لكافأته وأحسننت إليه جزاء صنيعته.

انتهى بتصرف من البداية والنهاية، والكامل في التاريخ،
ووفيات الأعيان.

وصول صلاح الدين إلى الوزارة

وردت الأخبار إلى نور الدين زنكي بأن أسد الدين
شيركوه أجلى الفرنج عن مصر وقتل الوزير شاور حين اشتد
منه رائحة الغدر والخيانة، وفرح بذلك فرحاً شديداً، وقصدته
الشعراء من كل مكان بالتهنئة، غير أن فرحته لم تكتمل، لكون

أسد الدين صار وزيراً للعاظم، فشرع يستعمل الحيلة في إلغاء وزارة أسد الدين فلم يتمكن، والذي زاد من غضبه أنه بلغه أن صلاح الدين استحوذ على خزائن العاظم، واجتمع الناس حوله وحول عمه أسد الدين الذي أرسل إلى القصر يطلب كاتباً، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل رجاء أن يقبل منه إذا قال، وأفاض فيما كانوا يؤملون.

وبعث أسد الدين العمال في البلاد، وأقطع الإقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياماً معدودات، وفجأة أدركه جمامه في يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، فكأنت وزارته شهرين وخمسة أيام رحمه الله تعالى.

فأشار الأمراء وقادة الجند والفرسان الشاميون على العاظم بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة بعد عمه، فهي منزلة هو لها أهل وبها جدير، فاستجاب لهم، وولاه الوزارة وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه الملك الناصر، وذلك في يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، فكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله، ولم تشهد مصر له مثيلاً في الروعة

والبهاء، والجلال والجمال، وكأن الدنيا بأسرها فرحت لصالح الدين، ورقصت طرباً، وأنشدت نشيداً جميلاً رائعاً، ورددت قول الشاعر جرير بن عطية :

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر

وكان المشهد قد تحول إلى مهرجان حافل بالحركة والفرح، فيه طبول تدق، ورايات ترتفع، وأبواق تدوي، وأناشيد تُتلى، وأغاريد تسبح.

عيد بكل جمال العيد، وجلال العيد، وبهجة العيد، وحماسة العيد، وضجة العيد...!!

ومن يدري...؟ فلربما كان لهذا العيد خطره وجلاله، ولربما سوف ينبئ هذا العيد عن أمرٍ جليل، ويترتب عليه حوادث جسام...؟؟؟

لقد بايع الناس صلاح الدين، ودعوا له على المنابر، والتفت حوله النفوس، واجتمعت عليه القلوب، وارتفع قدره بين العباد وفي جميع البلاد، إلا ما كان من عين الدولة الباردقي الذي تخلف عن بيعته وقال : لا أخدم يوسف بعد نور الدين، وكتب إليه نور الدين يعاتبه ويلومه على قبول الوزارة قبل

موافقته ودون مرسومه، وجعل نور الدين يلوم نفسه مغضباً
ويقول : مَلِكُ ابْنِ أَيُّوبَ ...!!

وأرسل إليه صلاح الدين يطلب منه أن يرسل إليه أهله
وذوي قرائته ليكونوا عنده في الديار المصرية، فأرسلهم إليه،
واشترط عليهم السمع والطاعة له.

وهكذا ... استقر أمره بمصر، وتوطدت دولته، وتمكن
سلطانه، وكمل أمره، وقويت أركانه.

وقد قال بعض الشعراء في ملك صلاح الدين، وقتل الوزير
شاور :

هيا لمصر بحور يوسف ملكها بأمر من الرحمن كان وقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاوراً بمثل إلا قتل داود جالوتا

وقعة الأحباش

لم يكذ صلاح الدين رحمه الله تعالى يستقر على كرسي
الوزارة بعد وفاة عمه أسد الدين حتى ملك قلوب الرجال،
وهانت عنده الدنيا واستصغرها، وشكر نعمة الله تعالى،
وأصاب الناس من سحائب الخير والفضل، وتطبيق المساواة
والعدل ما لم يحصل سوى في عهد الخليفين العادلين عمر بن
الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما .

هذا ... والناس يهرعون إليه من كل جانب، ويغدون عليه من كل جهة، وهو لا يغلّق بابه دون أحد، ولا يرد قاصداً، ولا يعدم وافداً.

هذا ... والزمان لا يصفو لأحد، ولم يسلم من غدره وملماته أمير ولا وزير ولا ملك ولا سلطان، بل هؤلاء من أشد الناس تعرضاً للغدر والمكائد والمؤامرات وصلاح الدين واحد من الذين تعرضوا للغدر والخيانة، فلقد ظهر في قصره رجل مؤتمن على أسرار الدولة، وكان حبيشياً يقال له الطواشي، فجعل يرسل الفرنج ويطلعهم على أسرار الدولة، وهو المؤتمن عليها، وموضع ثقة صلاح الدين وأمانته، فكان يطلب منهم أن يقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا منها الجيوش الإسلامية.

أرسل إليهم كتاباً مع رجل من حاشيته، فصادفه في الطريق رجل أمين على دينه، غيور على بلده فارتاب من ذلك الرجل، وشك في أمره، فقبض عليه وقاده إلى صلاح الدين الذي استجوبه، فاعترف وأخرج له الكتاب، ففهم صلاح الدين ما فيه فكتمه.

فأحس الطواشي مؤتمن الدولة أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر، فجعل يتوارى عن الأنظار، ويختبئ بين مكان وآخر، وبينما هو ذات يوم قد خرج إلى الصيد أرسل صلاح الدين إليه من قتله، وحمل إليه رأسه، وعلى أثر ذلك فقد ثقتهم بجميع الأحباش فعزلهم جميعا، واستناب على القصر عوضا عنهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطلععه بجميع الأمور صغارها وكبارها.

فغضب الأحباش، وجعلوا يحوكون المؤامرات بالليل والنهار، حتى اجتمعوا قريبا من خمسين ألفا، وجعلوا يغفرون على قصر صلاح الدين، ويشتبكون مع جنده في أكثر من موقعة ومشهد، فقتل من الفريقين عدد كبير، وكان العاضد ينظر إلى المعركة ويرقبها من قصره، وجعل يقذف جيش صلاح الدين من القصر بالحجارة، ووقعت عليهم بعض السهام، فقليل كان ذلك بعلم العاضد وأمره، وقيل لم يكن يعلم بذلك ... والله أعلم.

هذا ... وكان نورشاه شمس الدولة أخو صلاح الدين يقاتل مع جند أخيه وكان نور الدين قد بعثه ليشد أزره، فلقد أبدى يومئذ شجاعة فائقة، وأبلى بلاء حسنا، فأمر بإحراق منظره العاضد، فاضطر الجند أن يفتحوا الباب وينادوا: إن أمير

معركة حطين

المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بين أظهركم ومن بلادكم، فقوي أمر الشاميين، وارتفعت معنوياتهم القتالية، في الوقت الذي ضعف فيه أمر السودان، وانهارت معنوياتهم، وكفوا عن القتال، وهربوا من أرض المعركة.

هذا ... وكان مركزهم ومقر اجتماعهم بالمنصورة^(١)، فأرسل إليها صلاح الدين جيشا أحرق عليهم دورهم بيباب زويلة، فهربوا أمام الجيش، وولوا مدبرين. فتبعوهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا، ثم طلبوا الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج لهم شمس الدولة نورشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم، ولم يبق منهم إلا القليل. ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾^(٢).

﴿فذلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾^(٣) ﷻ.

(١) المنصورة : بلدة بمصر بين دمياط والقاهرة.

(٢) الآية ٥١ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ٥٢ من سورة النمل.

معركة دمياط^(١)

اشتدَّ غضبُ الفرنج لاستقرارِ أمرِ صلاح الدين في الوزارة وتثبيتِ حكمِهِ، وتوطيدِ أركانِ دولتِهِ في الديارِ المصرية، وانتصارِهِ على حُسادِهِ ومناوئِهِ، وقضائِهِ على عملائِهِم وجواسيسِهِم في قصرِهِ، وأيقنوا بأنَّهُ سوفَ يشكلُ عليهم خطراً شديداً، ويخرجُهُم نهائياً، ويقطَعُ آثارَهُم من كافَةِ بلادِ العرب والمسلمين ويقضي على نفوذِهِم ومصالحِهِم فيها لما رأوا ما حصلَ له من القوة والمنعة والمُلك، وتأييدِ الناسِ ومحبيهِم له.

فاجتمعوا مع الرومِ واتَّفَقوا على التحالفِ معهم على قتلِ صلاح الدين والقضاءِ على دولتِهِ، فجمعوا المِجانيقَ وآلاتِ الحصارِ، وجَهَّزوا جيوشاً جرارةً زحفوا بها إلى الديارِ المصرية قاصدينَ دمياط، ومعهم ما يحتاجونَ إليه من آلاتِ حصارٍ وعدة قتالٍ، ومُؤن كثيرة لفترةٍ طويلة، ومضوا إلى مدينةِ دمياط فحاصروها وضيَّقوا على أهلِها، وقتلوا الرجالَ والنساء والأطفالَ، ولم يميِّزوا بين مقاتلٍ وأعزَل، أو بينَ شابٍ وشيخٍ وامرأةٍ وطفلٍ، وعاثوا فيها الفسادَ، وأهلكوا الحرثَ والنسلَ، وأظهروا كلَّ ما في نفوسِهِم من حقدٍ وغلٍ، وكيدٍ وعدوانٍ.

(١) دمياط : مدينة قديمة بين تيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والبل، وهي ثغر من ثغور الإسلام. انظر معجم البلدان.

لقد جاؤوا إلى دمياط من البر والبحر رجاء أن يملكوا
الديار المصرية، وخوفاً من استيلاء المسلمين على بيت المقدس،
ولإبراز قوتهم، واستعراض عضلاتهم أمام صلاح الدين
ليكسروا شوكته، ويخففوا من حماسه واندفاعه، وليشطوا من
قوته وهمته، فيقعدوا عن قتالهم، فيصفو لهم الجو، وينفتح أمامهم
الطريق للغزو والاحتلال وتنفيذ ما خططوا له من السيطرة على
البلاد العربية والإسلامية كلها.

ولكن صلاح الدين لهم بالمرصاد، فهو لم يكن من النوع
الذي يلين، أو يتردد، أو يجبن، إنه من النوع الذي وقف نفسه
للجهاد في سبيل الله، ومقارعة العدو مهما تكن قوته وشراسته،
ومهما بلغت عدته وجبروته وغطرسته .

إنه في هذه الظروف الراهنة والحرجة لم يكن يتوقع من
الفرنج هذا العدوان المفاجئ والسريع، وأن يكونوا بهذا اللؤم
والغدر والوحشية، لذلك لم يأخذ الحيلة والحذر، لا سيما وأنه
حديث عهد بالحكم، ولم يكن لديه من الجند ما يقف في وجه
الفرنج ويردهم على أعقابهم، فلو كان لديه من الجند ما يكفي

لذلك لما تردّد لحظةً واحدةً، ولما ترك لهم الفرصة ليصلوا إلى دميّاط فضلاً عن أن يدخلوها، كما أنه كان في القاهرة السيّ تبعد عن دميّاط كثيراً، فتمّ أمرُ الله ليَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

ولكن لا بأس عليه فالعبرة بالخاتمة، والحكمُ للتّائج...!!
لقد كتب صلاح الدين إلى نور الدين محمود زنكي يستنجدُهُ، ويصفُ له الظروفَ السياسيّة والعسكريّة، وما حلّ بدميّاط وأهلها من هجومٍ غادرٍ وغاشمٍ وظالمٍ، وطلّبَ منه أن يُمدّه بالمقاتلين لطرد الغزاة الغادرين، وأكّدَ له أنّه إن خرجَ من مصرَ خلفه أهلها بسوءٍ، وإن قعدَ عن قتالِ الفرنج وتقايسَ عن طردهم أخذوا دميّاط وجعلوها معقلاً لهم يتقوّن بها على أخذِ مصرَ كلّها ومن ثمّ يزحفون إلى جميع بلادِ المسلمين يفعلون بأهلها ما يشاؤون.

فاستجاب له نورُ الدّين فأمدّه بجيوش كثيرة يتبع بعضها بعضاً، كان من بينهم الأميرُ نجمُ الدّين أيوبُ أبو صلاح الدّين ومعه أهلُه وأولاده، فتلّقاه الجيشُ من مصرَ بالتحية والتكريم، وخرجَ العاضدُ شخصياً لاستقباله إكراماً له ولولده صلاح

الدين الذي فرح بمقدم أبيه وإخوته فرحاً شديداً، وتمت لآل أيوب الغبطة والسرور، وجرى لهم بهذا اللقاء ما جرى لني الله يوسف عليه السلام، من اجتماع ولم شمل بعد غياب وافتراق طويلين، ولقد سلك صلاح الدين رحمه الله تعالى مع أبيه الأدب الرفيع والبر الحسن الجميل، فتنازل لأبيه عن كل شيء وألقى عليه لباس الحكم والوزارة، فأبى أن يلبسها، وشكر ولده وقابل أدبه بأدب مماثل وقال له : يا ولدي، ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر إلا وأنت كفاء له، ولا ينبغي أن يتبدل من الأمر شيء، أو أن يغير موضع السعادة. فولاه صلاح الدين على خزائن المال برأ به، واحتراماً له، واعترافاً بفضله ومكانته.

خروج الفرنج من دمياط

حين وصلت الجيوش الشامية التي أرسلها نور الدين إلى مصر دعماً لصلاح الدين، وضعا خطة ذكية ومحكمة لإيقاع الخوف والذعر في قلوب الفرنج لإشغالهم عن مقاومة الجيوش الإسلامية، ومن ثم توسيع رقعة القتال لإرباكهم وتوزيع جيوشهم على جبهتين :

ذلك أن نور الدين قصَدَ الكرك^(١) فحاصَرَهَا ليشغل بذلك قلوب الفرنج ويفاجئهم فقصَدَتْهُ جيوشُ الفرنجة من الساحل، فرحلَ عن الكرك، وقصَدَ لقاءَهم، فلم يقفوا له، ولقد نجح في ذلك، إلا أن خطته لم تكتمل تماماً حين بلغه وفاةُ مجد الدين ابن الداية بحلب^(٢)، فقطع خطته وانشغلَ بوفاةِ مجد الدين. ولم يكذَّ ينتهي من ذلك حتى بلغه أمرُ الزلازل التي حدثت بحلبَ وخربت كثيراً من البلاد.

ثم بلغه خبرُ موتِ أخيه قطبِ الدين بالموصل، فأوقف كلَّ أعماله، وعلقَ جميعَ نشاطاته وسافرَ من ليلته إلى الموصل. فكانت جميعُ هذه الأحداث مجتمعةً حائلاً دونَ تنفيذِ خطةِ نور الدين رحمه الله تعالى كاملةً لإرباكِ الفرنج وإضعافِ قوتهم، وإشغالهم عن الدفاع عن دُمياط. أما صلاحُ الدين رحمه الله تعالى فقد تجهَّزَ له جيشٌ قويٌّ زحفَ به قاصداً الفرنج ليُخْرِجَهُم من دُمياط بعد أن جهزَ

(١) الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي اللقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، والكرك أيضاً: قرية كبيرة قرب بعلبك. انظر معجم البلدان.
(٢) حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، أشهر من أن تعرف، وهي ثاني مدن الشام بعد دمشق، لكنها أكبر من دمشق مساحة، وسكانها أكثر عدداً.

رجالُه تجهيزاً كاملاً بالسلاح والعتاد والمؤن الرجال، وآلات
الحصار، وجعل جيشاً آخرَ وآلات أخرى احتياطية يستعملها
وقت الحاجة وحين تدعو الضرورة.

فلما وصل إليها جعل من فوره يشنُّ عليهم الغارات
السريعة والخاطفة، فاستطاع بعضُ الجند أن يخترقوا صفوفَ
العدو ويدخلوا المدينة، ويشتبكوا مع جنود العدو .

هذا ... وصالح الدين ومن معه يشنون عليهم الغارات من
خارج المدينة، والذين دخلوها يقاتلونهم من داخلها، حتى أنزل
الله عليهم نصره، وحذل عدوهم، وأخلوا دمياط وخرجوا منها
خائبين بعد أن قتل منهم عددٌ كبير، وأحرقت مجانيقهم،
وتحطمت آلاتهم، وأخذت أموالهم ومؤنهم، وأصيبوا بهزيمة
منكرة لم ينالوا بحديثهم هذا سوى الذل والخيبة والخسران
وفقدان الهبة والإحباط، لا سيما وقد بلغهم أن السلطان نور
الدين قد هجم عليهم في الكرك وغيرها كما تقدم، وقتل عدداً
كبيراً منهم وسبى كثيراً من نسائهم وأطفالهم، وغنم مغانم
كثيرة من أموالهم، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير
الجزاء، ورحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جناته.

رؤيا صالحة

روي أن نور الدين زنكي قبل إجلاء الفرنج عن دُمياط كان في جميع أوقاته لا يرى إلّا حزناً مكلوماً، فأراد محبوه والمقربون منه أن يزيلوا عنه مسحة الحزن التي لا تفارقه، ويحملوه على التبسّم فلم يفلحوا، حتى قرأ عليه أحدُ طلبه علم الحديث جزءاً من حديث شريف في التبسّم، وطلب منه أن يتبسّم، فامتنع من ذلك، وقال : إني لأستحي من الله أن يراني مبتسماً والمسلمون يحاصرون الفرنج بغير دُمياط...!!

وروي أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة رأى في تلك الليلة التي أجلى فيها الفرنج عن دُمياط رسول الله ﷺ وهو يقول : سلّم على نور الدين وبشره بأن الفرنج قد رحلوا عن دُمياط.

قال : فقلتُ يا رسول الله، بأيّ علامة...؟

فقال : بعلامة ما سجدَ يومَ تل حارم^(١) وقال في سجوده:

اللهم انصر دينك، ومن هو محمود الكلب...؟

(١) حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه الطاكية . انظر معجم البلدان. وهي اليوم تابعة لمحافظة إدلب، تبعد عن مدينة حلب حوالي خمسة وستين كيلومتراً إلى جهة الغرب.

فلما صلى نور الدين عنده الصبح بشره بذلك وأخبره بالعلامة، فلما بلغ قوله : (من هو محمود الكلب ...؟) سكت من قوله استحياء وخجلا من نور الدين، فقال له نور الدين: قل ما أمرك به رسول الله ﷺ .

فقال له ذلك.

فقال : صدقت، وبكى نور الدين رحمه الله تعالى تصديقا بذلك، وفرحا به، ثم تأكدوا من الأمر فإذا هو كما أخبر في المنام.

وفاة العاضد صاحب مصر

واسمه عبد الله بن يوسف، ويكنى أبا محمد، ويلقب بالعاضد، والعاضد في اللغة : القاطع، وفي الحديث : (لا يعضد شجرها) أي لا يقطع، وبه قطعت دولة الفاطميين، وزال ملكهم عن مصر، وكانت سيرته كغيره من الخلفاء الفاطميين سيئة ومذمومة، كما سيأتي لاحقا.

ولقد كانت وفاة العاضد يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، فحضر الملك صلاح الدين جنازته وشهد عزاءه، وبكى عليه وتأسف.

معركة حطين

ولَمَّا مَاتَ الْعَاضِدُ دَخَلَ صَلَاحُ الدِّينِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى
قَصْرَهُ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَى مَا فِيهِ وَأَخْرَجَ مِنْهُ أَهْلَ الْعَاضِدِ إِلَى دَارِ
أَعْدَائِهِمْ، وَأَجْرَى عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ السَّنِيَّةَ، وَالْعَطَايَا السَّخِيَّةَ،
عَوْضاً عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ الْخِلَافَةِ، ثُمَّ أَمَرَ صَلَاحُ الدِّينِ بِقَطْعِ الْخُطْبَةِ
لِلْعَاضِدِ وَإِقَامَتِهَا لِلْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا، فَرِحَ
بِهِ الْمُسْلِمُونَ فَرَحًا شَدِيدًا.

ولَمَّا انْتَهَى الْخَبْرُ إِلَى الْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ زَنْكِي أَرْسَلَ إِلَى
الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ، فَأُقِيمَتِ الْأَفْرَاحُ بِبَغْدَادَ، وَازْدَانَتْ
بُيُوتُهَا وَشَوَارِعُهَا، وَأُغْلِقَتِ الْأَسْوَاقُ، وَانْشَغَلَ النَّاسُ
بِأَفْرَاحِهِمْ، وَأَلْقِيَتِ الْخُطْبُ وَالْأَشْعَارُ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ السَّعِيدَةِ،
وَتَسَابَقَ الشَّعْرَاءُ وَتَنَافَسُوا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بِمَجْتِهِمْ وَسُرُورِهِمْ،
بِتَوْلِيَةِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَنَهَايَةِ الْحُكْمِ الْفَاطِمِيِّ، وَتَوْحِيدِ
الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ الْعِمَادِ :

تَوَفَّى الْعَاضِدُ الدَّعِيَّ فَمَا	يَفْتَحُ ذُو بَدْعَةٍ بِمَصْرَ فَمَا
وَعَصْرُ فَرَعُونَهَا انْقَضَى وَغَدَا	يُوسُفُهَا فِي الْأُمُورِ مُحْتَكَمَا
قَدْ طُفِنَتْ جِمْرَةُ الْفُؤَادِ وَقَدْ	دَاخَ مِنَ الشُّرْكِ كُلِّ مَا اضْطَرَمَا
وَصَارَ شَمْلُ الصَّلَاحِ مَلْتَمَاً	بِهَا وَعَقْدُ الْأَسَدَادِ مُنْتَظَمَا
لَا غَدَا مَشْعَرَا شَعَارِ بَنِي الْ-	عَبَّاسِ حَقًّا وَالْبَاطِلِ اكْتَمَا

وافتر ثغر الإسلام وابتسما
فليقرع الكفر سنة ندما
جمى وفي الطفافة منقسما
عامر يبت من الكمال سما
ومات ذلاً وأنفة رغماً

واهتر عطف الإسلام من جليل
واستبشرت أوجه الهدى فرحا
عاد جريم الأعداء منتهك الـ
قصور أهل القصور آخرها
أزعج بعد السكوت ساكنها

ومما قيل من الشعر ببغداد يبشر الخليفة المستضيء بالخطبة
له بمصر وأعمالها، ولعل قائل ذلك أبو الفضائل الحسين بن
محمد ابن بركات وزير الخليفة.

إليك به خوض الركائب ثوجف
من الشرك يأس في لها الحق يقذف^(١)
تية على كل البلاد وتشرف
وكانت إلى عليائه تشرف^(٢)
وكل عن الرحمن في الأرض يخلف^(٣)
وعاراً أبي إلا بسيفك يكشف

ليهنك مولاي الفتوح تصبغت
أخذت به مصرأ وقد حال دونها
فعدت بحمد الله باسم إمامنا
ولا غرو إن دلت ليوسف مصره
فشابهة خلقاً وخلفاً وعفة
كشفت بها عن آل هاشم سبة

وقال بعضهم بمدح صلاح الدين وبني أيوب على ما فعلوه

بديار مصر:

بني غيب بمصر إن هذا هو الفضل

أبدتم من بني دولة الكفر من

(١) لها الحق: جمع لهوة، وهي العطية من أي نوع كان.
(٢) لا غرو: لا عجب، والمراد بيوسف: صلاح الدين لأن اسمه يوسف، ولقد يراد به
المتجدد الخليفة العباسي، والتشرف: التطلع.
(٣) فشابهه خلقاً... الخ أي أن يوسف المذكور يشابه يوسف ﷺ بالخلق والخلق والصفة.

زنادقة دَعَاةً باطنيةً هجومٌ وما في الصالحين لهم أصلٌ
يسرون كُفراً يظهرون تشيعاً ليستروا سابورَ عنهمُ الجهلُ^(١)

من هم الفاطميون ...؟

وما نسبهم ...؟

يَدْعِي الفاطميون أَنَّهُم يَنْتَسِبُونَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَأَنَّهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ، إِنَّمَا يَنْسِبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ عُبَيْدٌ وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُمْ أَيْضاً الْعَبِيدِيُّونَ، وَكَانَ عُبَيْدٌ هَذَا اسْمُهُ سَعِيدٌ، وَكَانَ يَهُودِيًّا حَدَادًا بِسَلْمِيَّةَ^(٢)، فَدَخَلَ بِلَادَ الْمَغْرِبِ وَتَسَمَّى بِعَبِيدِ اللَّهِ، وَادَّعَى أَنَّهُ شَرِيفٌ عَلَوِيٌّ فَاطِمِيٌّ، وَقَالَ عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ الْمَهْدِيُّ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَئِمَّةِ^(٣)، بَيْنَمَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُفْتَرٍ كَذَّابٌ دَعِيٌّ، رَاجَ لَهُ مَا افْتَرَاهُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَأَزَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْإِنْتِهَازِيِّينَ وَالْمُنْتَفِعِينَ وَالْمُرْتَزِقَةَ لِتَحْقِيقِ بَعْضِ الْمَكَاسِبِ وَالْوُصُولِ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، وَلَقَدْ أُسِّسُوا دَوْلَتَهُمْ فِي

(١) سابور : اسم موضع وهو أعجميٌّ مغربٌ، ولعلَّ أصلَ الفاطميين يعود إليه، وقوله : ليستروا سابور : أي ليخفوا أصلهم.

(٢) سلمية : بليدة من أعمال حمّاه بينهما مسيرة يومين، وكانت تعدّ من أعمال حمص. انظر معجم البلدان.

(٣) البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ٢٦٧ .

تونسَ على يدِ عُبيدِ الله الذي تسمّى بالمهدي، وذلك سنة ٢٦٩هـ.

ولقد حاول العباسيون أن يشكّكوا في صحّة انتساب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وعملوا في ذلك عدداً من محاضر الطعن في نسبهم ووقع عليها الأشراف والقضاة والأعيان وعددٌ كبيرٌ من المقيمين تحت ظلّ الدولة العباسية، ولقد حفظت لنا المصادر التاريخية سجلاً كاملاً لأحد هذه المحاضر الذي صدر سنة ٤٠٢هـ وكله طعنٌ في الفاطميين وفي نسبهم واتّهامهم بالكفر والزندقة، وأنهم أدعياءٌ خوارجٌ لانسبَ لهم في ولدِ علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنّ ما ادّعوه من الانتساب إليه زورٌ وباطلٌ، وأنّ هذا الناجم ^(١) بمصر هو وسلفه كفارٌ فساقٌ زنادقةٌ ملحدون معطلون ... ^(٢)

ولقد طعن كثيرٌ من العلماء والمؤرخين في نسبهم ولم يذكروهم في كتبهم مع الخلفاء، منهم الإمام السيوطي الذي علّل ذلك بعدم صحّة إمامتهم فقال : (ولم أورد أحداً من

^(١) هو الحاكم بأمر الله الفاطمي.
^(٢) الوثائق السياسية والإدارية للمهود الفاطمية والأتابكية والأيوية للذكور محمد ماهر حمادة.

الخلفاء العبيدين لأن إمامتهم غيرُ صحيحة لأُمورٍ : منها : أنهم غيرُ قرشين، وإِثما سَمَتهم بالفاطميين جهلةُ العوام ، وإِلاَّ فجدُّهم مجوسيّ.

قال القاضي عبدُ الجبارِ البصري: اسمُ جدِّ الخلفاءِ المصريين سعيدٌ، وكانَ أبوه يهودياً حداداً نشابةً.

وقال القاضي أبو بكرٍ الباقلاني : القَدَّاحُ جدُّ عبيدِ الله الذي يسمَّى بالمهدي كان مجوسياً، ودخلَ عبيدُ الله المغربَ وادَّعى أَنَّهُ علويٌّ، ولم يعرفهُ أحدٌ من علماءِ النسبِ، وسمَّاهم جهلةُ الناسِ الفاطميين.

وقال ابنُ خَلِّكان : أَكثَرُ أَهْلِ العِلْمِ لا يصحِّحون نسبَ المهدي عبيدِ الله جدِّ خلفاءِ مصر، حتَّى إِنَّ العزيرَ باللهِ بنَ المعزِّ في أولِ ولايته صَعَدَ المنبرَ يومَ الجمعةِ فوجدَ هناكَ ورقةً فيها هذه الأبياتُ :

إِنَّا سَمِعْنَا نَسَبًا مَنكَرًا يُتْلَى عَلَى الْمَنِيرِ فِي الْجَامِعِ
 إِنَّ كُنْتَ فِيمَا تَدْعِي صَادِقًا فَادْكُرْ أَبَا بَعْدَ الْأَبِ السَّلْبِ
 وَإِنْ تَرَدُّ تَحْقِيقَ مَا قُلْتَهُ فَانْسُبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّلْعِ
 أَوْ لَا دَعِ الْأَنْسَابَ مَسْتَوْرَةً وَادْخُلْ بِنَا فِي النَّسَبِ الْوَاسِعِ
 فَإِنَّ أَنْسَابَ بَنِي هَاشِمٍ يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ
 وَكُتِبَ الْعَزِيزُ إِلَى الْأُمَوِيِّ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ كِتَابًا سَبَّهُ فِيهِ
 وَهَجَاهُ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْأُمَوِيُّ : أَمَّا بَعْدُ .

فَإِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَنَا فَهَجَوْنَا ، وَلَوْ عَرَفْنَاكَ لَأَجَبْنَاكَ .
 فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْعَزِيزِ ، فَأَفْحَمَهُ عَنِ الْجَوَابِ ، يَعْنِي أَنَّهُ
 دَعَى لِأَتَعْرِفُ قَبِيلَتَهُ .

قَالَ الذَّهَبِيُّ : الْحَقَّقُونَ مُتَّفَقُونَ عَلَى أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ الْمُهَدِيَّ
 لَيْسَ بَعْلَوِيٍّ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ حَفِيدُهُ الْمَعْرُ صَاحِبُ الْقَاهِرَةِ ،
 وَقَدْ سَأَلَهُ ابْنُ طَبَاطَبَا الْعَلَوِيُّ عَنْ نَسَبِهِمْ ، فَجَذَبَ نَصْفَ سَيْفِهِ
 مِنَ الْغَمْدِ وَقَالَ : هَذَا نَسَبِي ، وَثَرَّ عَلَى الْأُمَرَاءِ وَالْحَاضِرِينَ
 الذَّهَبَ وَقَالَ : هَذَا حَسَنِي .

ومنها : أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الإسلام، ومنهم من أظهر سب الأنبياء، ومنهم من أباح الخمر، ومنهم من أمر بالسجود له.

وقال الذهبي كان القائم بن المهدي شراً من أبيه، زنديقاً، ملعوناً، أظهر سب الأنبياء.

وقال : كان العبيديون على ملة الإسلام شراً من التتر.
وقال ابن خلكان : وقد كانوا يدعون علم المغيات، وأخبارهم في ذلك مشهورة، حتى إن العزيز صعد يوماً المنبر فرأى ورقة فيها مكتوب :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحقاقة
إن كنت أعطيت علم غيب بين لنا كاتب البطاقة
ومنها : أن مبايعتهم صدرت والإمام العباسي قائم موجود
سابق البيعة فلا تصح، إذ لا تصح البيعة لإمامين في وقت واحد، والصحيح المتقدم.

انتهى ملخصاً من كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي، وإني حين أعرض هذه الوثائق أعرضها كما وجدتها، ولست مسؤولاً عن محتوياتها، ولا يعني نقلي لها أن مضمونها يعبر عن رأيي أو معتقدي أو أي شيء من هذا القبيل، كما أنني لا أبتناها ولا أجزم بصحتها أو زيفها.

أثر الخلافة الفاطمية

أُسِّسَتِ الدولة الفاطمية في تونس عام ٢٦٩هـ على يد عُبيدِ اللهِ الذي تسمَّى بالمهدي كما تقدَّم، ثم استطاع حفيده المعزُّ لدينِ اللهِ أن يحتلَّ مصرَ ويشرعَ في بناءِ مدينةِ القاهرة، وذلك في حدودِ سنة ٣٥٨هـ، ولقد استفادَ المعزُّ لدينِ اللهِ من ضعفِ الخلافةِ العباسية في المشرق حينَ سيطرَ الأتراك على مقدراتِ الأمور، وانقسمتِ الدولة الواحدةُ إلى عددٍ كبيرٍ من الدويلاتِ المتناحرة.

كما وأَنَّهُ استفادَ من ضعفِ حاكمِ مصرَ (كافور) وخلوها من شخصيةٍ قويةٍ تستطيعُ ضبطَ الأمورِ فيها، فزحفَ إليها واحتلَّها وجعلها مقرّاً للخلافةِ الفاطمية، وهذا ما يسمَّى بالعهدِ المصري الذي استمرَّ حتى نهايةِ الدولةِ الفاطمية على يدِ صلاح الدينِ يوسفَ بنِ أيوبَ رحمه اللهُ تعالى.

هذا ... ولستُ بصددِ استعراضِ عهدِ الفاطميين وتقييمِهِ، ولكنِ المرادُ أخذُ فكرةٍ عامةٍ عنه لأنَّ ظهورَ صلاح الدينِ ووصوله إلى الحكمِ كان فيه، كما أنَّ نهايتهُ كانتُ على يدهِ،

فلقد ظهرت شخصية صلاح الدين في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين الذي خلفه صلاح الدين وأنهى حكم العبيدين. (ولقد امتاز عهد العاضد بالفوضى المتناهية التي شملت كل مرافق الحياة تقريباً، وبالعجز المطلق للخلافة الفاطمية، وبالصراع الرهيب الذي دار بين الخليفة من جهة، وبين وزرائه من جهة ثانية، ثم بين الوزراء بعضهم بعضاً، ولقد دخل الصليبيون بعد هزيمة طرفاً ثالثاً في هذا الصراع، وهددوا مصر تهديداً خطيراً كل الخطورة حتى اضطر العاضد ووزراؤه إلى الاستعانة بنور الدين وجيوشه ثلاث دفعات، ولكن نور الدين وقائد جيشه أسد الدين شيركوه لم يكونا ينظران إلى الأمر على أنه مجرد استعانة، وإنما وضعاً أمام أعينهما هدفاً محدداً ثابتاً هو إنقاذ مصر من الخطر الصليبي الماحق الذي يهددها، وهذا لا يتم إلا بإكمال عملية التوحيد التي بدأها عماد الدين زنكي وسار فيه شوطاً بعيداً ابنته نور الدين، وأكملها من بعده صلاح الدين.

ولكن ذلك لا يمكن أن يتم مع وجود ثلاث قوى تمنع من ذلك: القوة الأولى الصليبيون، والقوة الثانية قوة الوزراء

الفاطمين المتمثلة خاصة بشاور وولده، وأخيراً الخلافة الفاطمية نفسها.

أما الصليبيون فقد تمكن أسد الدين شيركوه ومن بعده صلاح الدين من ردّ عاديّتهم عن مصر.

وأما الوزراء الفاطميون فقد دخلوا في صراعٍ مريرٍ رهيبٍ مع أسد الدين وصلاح الدين، وأخيراً تمكن صلاح الدين من التحالف مع العاضد والقضاء على شاور وابنه، وأصبح شيركوه أسد الدين وزيراً للعاضد، وبعد وفاته حلّ محله في هذا المنصب ابن أخيه يوسف بن أيوب المعروف بلقبه صلاح الدين.

وأخيراً صدر أمرُ نور الدين الحازم الذي لا رجعة فيه بإلغاء الخلافة الفاطمية إلى صلاح الدين، وصدف أن مات العاضد وبعد موته بأسبوعٍ واحدٍ أُلغيت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ وعادت مصرُ إلى أحضان السنة.^(١)

^(١) الوثائق السياسية والإدارية.

الفاطميون في الميزان

علمنا أن أصل الفاطميين لا يمتُّ إلى الإسلام بصلية، ومبادئهم الداعية إلى تقديس الخليفة واعتباره معصوماً، وتكفير كلِّ مَنْ خالفه إلى غير ذلك من تعاليم ومعتقدات تخلف روح الإسلام وتعاليمه السامية، الأمر الذي يفسّر لنا سرعة زوال أثر هذه الدولة، وعدم بقائها واستمرارها، خاصة وأن آخر عهدها كان مشحوناً بالخلافات والصراع بين الوزراء على السلطة إلى جانب صراعيهم مع الخلفاء، ودسائس أهل القصير، والصراع مع الصليبيين الذي استمرَّ إلى آخر أيامهم.

ولكن من جهة أخرى فقد كان للفاطميين الأوائل جهد مشكور في ردِّ الروم عن بلاد الشام، كما أن لهم بعض الأثر في الصراع ضدَّ الفرنج في بلاد الشام أيضاً.

ومن يدري...؟ فقد تكون هناك ظروف قاسية حالت دون تكوين حلف إسلامي مع الخلافة العباسية يقف في وجه الصليبيين.

(ولقد كانت الدولة الفاطمية دولة متسامحة مع أهل الذمة حتى أصبح عدد من الذميين وزراء في عهود عدد من الخلفاء، كما وأنها شجعت العلوم والآداب والفنون والمكتبات خاصة كما فعل العزيز بالله والحاكم بأمر الله، ولقد كان أوائل الخلفاء متحمسين لنشر مذهبهم ولذلك كان تسامحهم مع مخالفينهم من أهل السنة أقل بكثير من تسامحهم مع أهل الذمة، ولكن متأخري خلفائهم لم يعودوا يهتمون إلا بالمنصب وأصبحت الدعاية للمذهب الفاطمي عملاً تقليدياً.

كذلك حفظت الدولة الفاطمية علاقات خارجية جيدة مع جيرانها من الدول المسيحية، فكان ذلك أحد عوامل ازدهار التجارة.

وإن وجود بعض الوزراء الأقوياء في العصور الأخيرة مثل الأفضل والمأمون البطائحي جلب شيئاً من الرخاء إلى سكان مصر، على حين كان صراع الوزراء المتأخرين سبباً في جلب الكوارث والخراب للدولة التي تلقت الضربة القاتلة النهائية من يد نور الدين الشهيد سنة ٥٦٧هـ.)^(١)

(١) المصدر السابق.

ولقد قال الشاعرُ المعروفُ باسمِ عرقلة يعبرُ عن فرحِهِ
 بسقوطِ دولةِ العبيدين وتسلمِ صلاحِ الدينِ زمامِ الأمورِ :
 أصبحَ الملكُ بعدَ آلِ عليٍّ مشرفاً بالملكِ من آلِ شادي
 وغدا الشرقُ يحسُدُ الغر ب للقومِ فمصرُ ترهو على بغداد
 ماحوها إلا بعزمٍ وحزمٍ وصليلُ الفولاذِ في الأكباد
 لا كفرعونَ والعزيزَ ومن كان بها كالخطيبِ والأستاذ
 يعني بآلِ علي الفاطميين على زعيمهم، وليسوا كذلك،
 وكأنه يعني بالأستاذ، نوراً الأخشيدي ... والله أعلم.

خلاف بين نور الدين

وصلاح الدين

لم يكذُ صلاحُ الدينِ رَحِمَهُ اللهُ تعالى يتسلمُ مقاليدَ الحكمِ،
 ويرزُ على الساحةِ بمصرَ كسلطانٍ للمسلمين فيها، ولم تكذُ
 تتمهذُ له البلادُ ويحظى بتأييدِ أهلِ مصرَ ومبايعتهم بعد زوالِ
 دولةِ العبيدين حتى ألغى عبارة (حيَّ على خيرِ العملِ) في
 الأذان، وأسقطَ عن أهلِ مصرَ المكوسَ والضرائبَ التي أعيشهم
 وأثقلتُ كواهلهم، وقرئ المنشورُ بذلك على رؤوسِ الأشهادِ
 يومَ الجمعةِ بعد الصلاة، وإذا كتابُ يأتيهِ من نورِ الدينِ محمود

زنكي يأمره أن يتوجه بالعساكر المصرية إلى بلاد الكرك،
ليجتمعا هنالك ويضعاً خطة مشتركة على المصالح التي يعود
نفعها على المسلمين، وذلك بعد أن غزا نور الدين الفرنج في
السواحل، وأنزل بهم بأساً شديداً وضربهم ضربة قاصمة، ثم
أراد أن يُجهز عليهم فعزم على محاصرة الكرك، وكتب إلى
صلاح الدين أن يوافيه هنالك.

فتوهم صلاح الدين من ذلك وخاف أن يكون لهذا الأمر
غائلة يترتب عليها زوال ملكه عن مصر، ولكنه مع ذلك جهز
جيشه وغادر به مصر لتنفيذ أمر نور الدين، ثم أسر له بعض
أصحابه عن مؤامرة يقوم بها بعض العبيدين لاستعادة دولتهم،
فخشى من ذلك ورجع إلى مصر وكتب إلى نور الدين يعتذر
عن الوصول إليه لأمر بلغته عن بعض العبيدين، وأنهم
عازمون على الوثوب عليه، وأنه يخشى على مصر أن تقع في
أيديهم.

فعظم ذلك على نور الدين وشق عليه ولم يقبل اعتذاره،
وعزم على الدخول إلى مصر لئلا تتزعزعها من صلاح الدين
ويُخرجها منها.

فلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْخَيْرُ صَلَاحَ الدِّينِ ضَاقَ بِهِ ذَرْعاً، وَجَمَعَ أَهْلَهُ
وفِيهِمْ أَبُوهُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُوبُ، وَخَالُهُ شَهَابُ الدِّينِ الْحَارِمِيُّ،
وَابْنُ أَخِيهِ تَقِيُّ الدِّينِ عَمْرُو، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ عَزَمِ نَوْرِ الدِّينِ عَلَى
دُخُولِ مِصْرَ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا، وَاسْتَشَارَهُمْ بِذَلِكَ، فَلَمْ يَجِبْهُ
أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ.

فَقَامَ ابْنُ أَخِيهِ تَقِيُّ الدِّينِ فَقَالَ : إِذَا جَاءَنَا قَاتِلُنَا وَصَدَدْنَا
عَنِ الْبِلَادِ، وَوَافَقَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

فَقَامَ نَجْمُ الدِّينِ أَيُوبُ مُغْضِباً فَشَتَمَهُمْ، وَأَنْكَرَ قَوْلَهُمْ
وَاسْتَعْظَمَهُ، وَكَانَ ذَا رَأْيٍ صَائِبٍ وَعَقْلٍ رَاجِحٍ وَتَقْدِيرٍ لِعَوَاقِبِ
الْأُمُورِ، فَقَالَ لِتَقِيِّ الدِّينِ : اقْعُدْ مَكَانَكَ وَسَبِّهْ.

وَقَالَ لَصَلَاحِ الدِّينِ : أَنَا أَبُوكَ، وَهَذَا شَهَابُ الدِّينِ
خَالُكَ، أَتَظُنُّ أَنَّ فِي هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ مَنْ يُحِبُّكَ وَيُرِيدُ لَكَ الْخَيْرَ
مِثْلَنَا ... ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ رَأَيْتُ أَنَا وَهَذَا خَالُكَ شَهَابُ الدِّينِ نَوْرَ
الدِّينِ لَمْ يُمْكِنَّا إِلَّا أَنْ نَتَرَجَّلَ لَهُ وَنَقْبَلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَوْ

أَمَرْنَا أَنْ نَضْرِبَ عَنْقَكَ بِالسِّيفِ لِفَعْلِنَا، فَإِذَا كُنَّا نَحْنُ هَكَذَا فَمَا يَكُونُ غَيْرُنَا...؟ وَكُلُّ مَنْ تَرَاهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعَسَاكِرِ لَوْ رَأَى نَوْرَ الدِّينِ وَحَدَّهُ لَمْ يَتَحَاسَرْ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى سَرَجِهِ، وَلَا وَسِعَهُ إِلَّا النُّزُولُ وَتَقْبِيلُ الْأَرْضِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَذِهِ الْبِلَادُ لَهُ وَقَدْ أَقَامَكَ فِيهَا، وَإِنْ أَرَادَ عَزْلَكَ فَأَيُّ حَاجَةٍ لَهُ إِلَى الْمَجِيءِ...؟ يَأْمُرُكَ بِكِتَابٍ مَعَ نَجَابٍ^(١) حَتَّى تَقْصِدَ خِدْمَتَهُ وَيُولِّيَ بِلَادَهُ مَنْ يُرِيدُ.

فَتَفَرَّقُوا جَمِيعًا، وَكُتِبَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى نَوْرِ الدِّينِ يُخْبِرُونَهُ بِمَا حَدَّثَ.

وَلَمَّا خَلَا أَيُّوبُ بِابْنِهِ صِلَاحِ الدِّينِ قَالَ لَهُ : أَنْتَ جَاهِلٌ قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ، تَجْمَعُ هَذَا الْجَمْعَ الْكَثِيرَ وَتُطْلِعُهُمْ عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ، فَإِذَا سَمِعَ نَوْرُ الدِّينِ أَنَّكَ عَازِمٌ عَلَى مَنَعِهِ عَنِ الْبِلَادِ جَعَلَكَ أَهَمَّ الْأُمُورِ إِلَيْهِ، وَأَوَّلَاهَا بِالْقَصْدِ، وَلَوْ قَصَدَكَ لَمْ تَسِرْ مَعَكَ أَحَدًا مِنْ هَذَا الْعَسْكَرِ وَكَانُوا أَسْلَمُوا إِلَيْهِ، وَأَمَّا الْآنَ بَعْدَ هَذَا الْمَجْلِسِ فَيَسْكُتُونَ إِلَيْهِ وَيَعْرِفُونَهُ قَوْلِي، وَتَكْتُبُ أَنْتَ إِلَيْهِ وَتُرْسِلُ فِي الْمَعْنَى، وَتَقُولُ: أَيُّ حَاجَةٍ إِلَيَّ قَصْدِي...؟ يَجِيءُ

(١) النجَاب : هو راكبُ الناقة السريعة.

نَجَابٌ يَأْخُذُنِي بِجِلْدٍ يَضَعُهُ فِي عُنُقِي، فَهُوَ إِذَا سَمِعَ هَذَا عَدَلَ عَنْ
قَصْدِهِ، وَالْأَيَّامُ تَنْدَرُجُ، وَاللَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ فِي شَأْنٍ، وَاللَّهُ لَوْ
أَرَادَ نُورُ الدِّينِ قَصْبَةَ مِنْ قَصَبٍ سَكَرْنَا لِقَاتِلَتُهُ أَنَا عَلَيْهَا حَتَّى
أَمْنَعُهُ أَوْ أُقْتَلَ.

فَفَعَلَ صَلَاحَ الدِّينِ مَا أَشَارَ بِهِ أَبُوهُ، وَكَتَبَ إِلَى نُورِ الدِّينِ
يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، فَقَبِلَ اعْتِذَارَهُ، وَذَهَبَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ حَقِّ، وَلَانَ
قَلْبُهُ، وَعَادَ كُلُّ شَيْءٍ طَبِيعِيًّا كَمَا كَانَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
العالمين.

رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين

جاءت الأنبياء إلى صلاح الدين عن طريق نصارى الشام
تنقلُ نبأ وفاة السلطان نور الدين، فأقلق النبأ صلاح الدين فقام
من فوره فكتب يستفسر عن صحته، ويطمئن على سلامته،
فقال :

ورد خير من جانب العدو اللعين، عن المولى نور الدين،
أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب
والوجوه، فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم عمادته

الظهر، وعزَّ فيه الثبْتُ وأعوَزَ الصبر، فإنَّ كانَ والعياذُ بالله، قد تمَّ، وخصَّةُ الحكمُ الذي عمَّ، فللحوادثِ تُدخِرُ النصال، وللأيامِ تُصطَنعُ الرجال، وماربَّتِ الملوكُ ممالكَها، إلَّا لأولادها، ولا استودعتِ الأرضُ الكريمةُ البذرَ إلَّا لتؤديَ حقَّها حصَّادها، فاللهُ اللهُ أنْ تختلفَ القلوبُ والأيدي فتبلغَ الأعداءَ مرادها، وتُعدمَ الآراءُ رشادها، وتنتقلَ النعمُ التي تعبتِ الأيامُ فيها إلى أنْ أعطتْ قيادها، فكونوا يداً واحدةً، وأعضاءاً متساعداً، وقلوباً يحميها ودٌّ، وسيوفاً يضمُّها غمدٌ، ولا تختلفوا فتكفوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاطِ الأرجل، ولا تأخذوا بأطرافِ الأئمل، فالعداوةُ محدقةٌ بكم من كلِّ مكان، والكفرُ مجتمعٌ على الإيمان، ولهذا البيتِ منَّا مناصرٌ لا غُذُلُ، وقائمٌ لا نسلُمُه، وقد كانتِ وصيتهُ إلينا سبقت، ورسالتهُ عندنا تحققت، بأنَّ ولدَه القائمُ بالأمرِ وسعدَ الدينِ كمشتكين الأتابك بين يديه، فإنَّ كانتِ الوصيةُ ظهرتْ وقُبِلَتْ، والطاعةُ في الغيبةِ والحضورِ أدَّتْ وفُعلتْ، وإلَّا فنحنُ لهذا الولدِ يدٌ على مَنْ ناداه، وسيفٌ على مَنْ عاداه، وإنَّ أسفَرَ الخيرُ عن معافاة، فهو الغرضُ المطلوب، والنذرُ الذي يحلُّ على الأيدي والقلوب. ثم تبيَّنَ كذبُ الخير، ولم يحصلْ بعد ذلك خلافٌ بينهما، ولا ما يوجبُ النفرةَ والحمدُ لله ربَّ العالمين.

هذا ... ولم يزل صلاح الدين يحقق العدل، ويسيطر الخير، وينشر الإحسان، ويُفيض على الناس الفضل والإنعام، ويحظى بثقتهم، ويفوز بمحبتهم حتى غدا منهم موضع الروح من الجسد، وآثروه على كل شيء، وأطاعوه في المنشط والمكره، وخرجوا معه يجاهدون في سبيل الله خفافاً وثقالاً، لا يترددون، ولا يتراجعون، ولا يشاقونه من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا يخالفونه في كل ما أمر به أو نهى، وكأنهم تشبهوا بأصحاب النبي ﷺ، وأحيوا سنته، وأعادوا مجده وسيرته.

فلما تأكد من ثقتهم وولائهم، واطمأن إلى صدقهم ووفائهم خرج بهم للجهاد في سبيل الله، ومقارعة العدو الصليبي الذي احتل البلاد، وجاس خلال الديار، وعاث فيها الفساد، ونشر بين أهلها الخوف والذعر والاضطهاد، فلقيهم في معارك عديدة، وجولات كثيرة أسفرت عن مهارته القتالية، وشجاعته النادرة، وقيادته الحكيمة، وشخصيته الفذة، فلو أن المجال يسمح لنا بتقصيها لما بخلنا بذلك، ولكني أرجأت ذكرها للرسالة القادمة كيلا تخرج هذه الرسالة عن حجمها الطبيعي، إذ أن المقصود ذكر معركة حطين، ولتكون هي خاتمة هذه الرسالة المتواضعة، فأقول بعون الله تعالى :

بين يدي معركة حطين^(١)

حدثت معركة حطين في أخرج فترة، وأقصى ظرف مر في حياة المسلمين، إذ كانت حياتهم عمور موراً شديداً بالأعباء وبالصراع وبالصعاب، فكانت البلاد منقسمة إلى دويلات كثيرة متعادية ومتناحرة، الأمر الذي سهّل على الأعداء أن يطمعوا بها ويقوموا بغزوها.

لقد انطلقت جحافل الصليب في قلب بلاد المسلمين كالسيل الجارف تكتسح كل ما تصادفه بضراوة وقسوة ووحشية، ثم تخلف وراءها الذعر والخوف والحرائق والدمار ثم احتلت سواحل الشام بكامله، ثم سيطرت على القدس و نابلس وعجلون والغور وغزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وصيدا وعكا وبيروت وصفد وطرابلس وإنطاكية وجميع ما والى ذلك، إلى بلاد إياس و سيس و آمد والرّها ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين عدداً كبيراً لا يحصيه إلا الله تعالى، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يُحدّ ولا يُوصف.

(١) تقع حطين بين طبرية وعكا، وتبعد عن طبرية نحو فرسخين، بالقرب منها قرية يُقال لها خيارة بها قبر النبي شعيب عليه السلام، قال ياقوت: وهذا صحيح لاشك منه. انظر معجم البلدان.

وحين دخلوا بيت المقدس دخلوه بأسوأ طالع، فلقد
أسرفوا في القسوة، وبالغوا في الوحشية، فسفكوا الدماء في
البيوت، وبقروا البطون بحثاً عن الدنانير في الأمعاء، واعتدوا
على النساء، وقتلوا الأطفال، وبقروا بطون الحوامل بصورة لم
يشهد التاريخ أبشع منها.

لقد اشتعلَ مرجلُ الحقدِ الصليبي منذ أن غزا الإسلام وانتشر
في شرق الأرض وغربها بسرعة مذهلة، فذكَّ عروش الفرس
والروم، وأسقطَ تيجانهم، وحطَّم كبرياءهم، وقضى على
غطرتهم.

لقد انطلق الإسلام لتحرير العرب في الشام والعراق ومصر
وشمال إفريقيا من الاستعمار الفارسي والروماني، ونشر
الإسلام في ربوع تلك البلاد، ثم لينتهي ببناء القاعدة الإسلامية
الوطيدة في الأندلس.

منذ تلك الفترة بدأت الحروب الصليبية على الإسلام بكل
الأساليب اللاإنسانية، والممارسات الوحشية، ثم تجلَّت ضراوتها
ووحشتها في الأندلس عندما زحفت على القاعدة الإسلامية
فيها، وارتكبت من الوحشية والبطش في تعذيب عشرات

الآلاف من المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيراً في دنيا الناس.

وكذلك تجلّت في الحروب الصليبية في الشرق بمثل هذه البشاعة التي لا تتحرج ولا تتخجل ولا تراعي في المسلمين إلّا ولا ذمّة، ولا تخشى الله ولا تخافه من قريب ولا بعيد.

ولقد استمرّ الأمر على هذا الحال إلى أن قيض الله تعالى لهذا الدين من رفع لواءه وحمى حياضه وصان مقدساته، ودافع عن حرماته ... إنه البطل المؤمن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى ...!! الذي قاوم الصليبيين، وتصدّى لهم، وطردهم من بلاد المسلمين، وطهر بيت المقدس من أرجاسهم وفسادهم، ودحرهم، وكسر شوكتهم، وردّهم على أعقابهم خائينين يجرون أذيال الذل والخيبة والهزيمة، وأعاد للإسلام وجهه المشرق النضير، وللمسلمين مجدهم القديم وكرامتهم المسلوقة، وثأر لكل بيت من بيوت المسلمين أصيب بمال أو عرض، أو جريح، أو قتيل، أو أسير.

بين صلاح الدين وبعض أمراء المسلمين

كَانَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يَحْلُمُ بِتَحْرِيرِ
كَافَّةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَطَرِ الصَّلِيبِيِّ الَّذِي حَاقَ بِالْمُسْلِمِينَ
وَأَحْلَ عَلَيْهِمْ خَطَرًا مُحْدَقًا، وَفَسَادًا دَائِمًا، وَشَرًّا مُسْتَطِيرًا،
وَكَانَ أَكْثَرَ انْتِشَارًا وَتَوَاجُدًا فِي بِلَادِ الشَّامِ، بَيْنَمَا هُوَ أَيْ
صَلَاحُ الدِّينِ مُسْتَقَرٌّ بِمَعَصَرٍ يَقَاوِمُ الصَّلِيبِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ
الطَّامِعِينَ فِيهَا وَالْمُتَكَالِبِينَ عَلَيْهَا، وَالَّذِي زَادَ الْأُمَرَ تَعْقِيدًا،
وَالطَّيْنَ بَلَةً مَوْتَ السُّلْطَانِ نَوْرِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ زَنْكِي رَحِمَهُ اللهُ
تَعَالَى، الْمَشْهُورُ بِالشَّهِيدِ، وَبُوفَاتِهِ اخْتَلَفَتِ الْأُمَرَاءُ، وَحَارَتِ
الْآرَاءُ، وَقَوِيَتْ شُوكَةُ الْأَعْدَاءِ، وَقَصَدُوا بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ
جِهَةٍ، وَعَزَمَ الصَّلِيبِيُّونَ عَلَى غَزْوِ دِمَشْقَ وَانْتِزَاعِهَا مِنْ أَيْدِي
الْمُسْلِمِينَ، لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْجَوَّ قَدْ خَلَا لَهُمْ، وَالْفُرْصَةُ سَنَحَتْ
لِحَيْثِهِمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ يَقَاوِمِهِمْ أَوْ يَقِفُ فِي وَجْهِهِمْ بَعْدَ وَفَاةِ نَوْرِ
الدِّينِ، فَبَرَزَ إِلَيْهِمُ الْأَمِيرُ شَمْسُ الدِّينِ بْنُ مُقَدِّمِ الْأَنْتَابِكِ، فَلَمَّ
يَسْتَطِيعُ الصَّمُودَ أَمَامَهُمْ فَهَادَنَهُمْ مَدَّةً وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ أَمْوَالًا كَثِيرَةً
مُقَابِلَ عَوْدَتِهِمْ، وَلَوْلَا أَنَّهُ هَدَّاهُمْ بِقُدُومِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ
لَمَا هَادَنُوهُ.

فلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ صَلاَحَ الدِّينِ عِبَاءَ جَيْشَهُ، وَأَصْدَرَ أَوَامِرَهُ
 بِالتَّجْهِيزِ فَوْراً لِلْحَرْبِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ إِلَى الشَّامِ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ
 عَظِيمٍ وَمَقْدَسٍ، وَكَتَبَ إِلَى أَمْرَاءِ الشَّامِ وَخَاصَّةً شَمْسَ الدِّينِ بْنِ
 مَقْدَمٍ يَلُومُهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ دَفْعِ الْأَمْوَالِ إِلَى الْفَرَنْجِ
 وَمَهَادَنَتِهِمْ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ عَازِمٌ عَلَى السَّفَرِ إِلَى الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ
 لِيَحْمِيَهَا مِنْ عَادِيَةِ الْمُعْتَدِينَ، وَيُدْفَعَ عَنْهَا طَمَعَ الْغَزَاةِ
 وَالطَّامِعِينَ، فَلَمْ يَحْفَلُوا بِهِ وَرَدُّوا عَلَيْهِ كِتَاباً فِيهِ غِلْظَةٌ، وَكَلَاماً
 فِيهِ بَشَاعَةٌ.

فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يُثَبِّطْهُ كَلَامُهُمْ، وَلَمْ يُثْنِ مِنْ عَزِيمَتِهِ
 رَدُّهُمْ وَبَشَاعَةُ جَوَابِهِمْ رَغْمَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ شَغْلٍ شَاغِلٍ لِمَا
 دَهَمَهُ بِمَصْرَ مِنْ اعْتِدَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ وَمُسْتَمِرَّةٍ عَلَى سَوَاحِلِهَا وَعَلَى
 الْحُدُودِ وَالثَّغُورِ، ذَلِكَ أَنَّ الْفَرَنْجَ قَدِمُوا إِلَى السَّاحِلِ الْمِصْرِيِّ فِي
 أَسْطُولٍ كَبِيرٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ كَثْرَةً وَعَدداً وَعُدَّةً فِي الْمَرَاكِبِ
 وَأَلَاتِ الْحَرْبِ، وَمَعْدَاتِ الْحِصَارِ الَّتِي غَطَّتْ وَجْهَ الْمَاءِ، فَلَمْ يَرَ
 النَّاسُ بَحْراً، وَإِنَّمَا رَأَوْا قِطْعاً حَرِييَّةً كَثِيرَةً وَهَائِلَةً، وَمَرَاكِبَ
 وَأَلَاتٍ وَمَعْدَاتٍ تَسْبُحُ عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ كَأَنَّهُمَا حَيْتَانِ ضَخْمَتَانِ
 قَادِمَتَانِ بِسُرْعَةٍ مَذْهَلَةٍ إِلَى السَّاحِلِ.

لقد قَدِمُوا من صقليةَ إلى ساحلِ اسكندريةَ، فنصبوا المجانيقَ والدَّبَاباتِ ومعدَّاتِ الهدمِ حولَ المدينةِ، فبرزَ إليهم أهلُها فقاتلوهم قتالاً شديداً، وصمدوا أمامهم صموداً مشرفاً دفاعاً عن مدينتهم، وقاموا بخطةٍ ذكيةٍ وشجاعةٍ وفدائيةٍ، فأقدموا على حرقِ مجانيقِ العدوِّ ودَّبَابَاتِهِ ومعدَّاتِهِ، وفاجؤوه به فأوقعَ اللهُ الرعبَ في قلوبهم، وشعروا بضعفٍ وخوفٍ شديدين، وارتفعتْ معنوياتُ المسلمين، فانقضُّوا عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وجعلوهم يُخلونَ مواقعهم ويهربونَ في كلِّ وجهٍ، فلمْ يكنْ لهم ملجأٌ إلاَّ الغرقُ في البحرِ، أو القتلُ أو الأسرُ، ومن نجا منهم ركبوا بعضَ مراكبهم ومضُّوا إلى بلادِهِم خائبينَ لم ينالوا شيئاً سوى الذلِّ والقتلِ والخوفِ والتشرُّدِ، وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ وكانَ اللهُ قوياً عزيزاً، وغنمَ المسلمونَ ما تركوا من أموالٍ وخيولٍ وخيامٍ ومراكبٍ وآلاتٍ ودَّبَاباتٍ. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقعة أسوان^(١)

والأمرُ الآخرُ الذي شغلَ صلاحَ الدينِ وأخرَ مجيئه إلى الشامِ ظهورُ رجلٍ يقالُ له (الكنزُ) سمَّاهُ بعضهم عباسَ بنَ شادي، وكان من بقايا الفاطميين، وقد استقرَّ بأسوانَ وجمعَ جموعَهُ فيها، وكانوا عدداً كبيراً من الرعايا والجهلة والمرزقة ورعاة البقر والأغنام، وكان قد ورطهم في قتال غير شرعي ولا متكافئ حيث زعمَ لهم أنه سيعيدُ الدولةَ الفاطميةَ، ويقضي على دولة صلاح الدين، فاجتمعوا معه على ذلك، فقصدوا (قوص)^(٢) وأعمالها، وقتلوا طائفةً من أمرائها ورجالها، فجردَ إليهم صلاحُ الدينَ جيشاً أمَرَ عليه أخاهُ الملكَ العادلَ أبا بكر الكردِي، فقاتلهم وانتصرَ عليهم، وقتلَ الكنزَ، وأسرَ أهلَهُ، وقضى على ثمرِهم، وأراحَ البلادَ والعبادَ منهم.

(١) أسوان : مدينة كبيرة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه. انظر معجم البلدان.

(٢) قوص : مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر بينها وبين القسوط اثنا عشر يوماً. وهي محطة التجار القادمين من عدن، وهي شرقي النيل بينها وبين بحر اليمن خمسة أيام. انظر معجم البلدان.

دخول صلاح الدين

دمشق

بإجلاء الفرنج عن ساحل الاسكندرية، والقضاء على تمرد الكنز وأصحابه تفرغ السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى إلى التوجه إلى بلاد الشام لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم والقضاء على خلافتهم للعمل يداً واحدة وقلباً واحداً لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، والوقوف في وجه الزحف الصليبي، وطردهم من البلدان الإسلامية.

وفي أول شهر صفر سنة سبعين وخمسمائة هجرية غادر صلاح الدين الديار المصرية بعد أن استتاب عليها أخاه أبا بكر قاصداً دمشق، فلما علم شمس الدين بن مقدم نائب دمشق بمجيء صلاح الدين كتب إليه يسترضيه ويستعطفه ويعتذر له غمًا بدر منه من مكاتيبه بغلظة وفظاظة، ويستحنه على القدوم إلى دمشق، ويَعِدُّه بتسليمها وجمع القادة والأمراء للاعتذار إليه، وتقديم الولاء والطاعة بين يديه.

وفي يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول دخل السلطان صلاح الدين مدينة دمشق وسط تهليل وتكبير أهلها، وزغاريدهم، وإطلاق عبارات الترحيب معبرين عن فرحتهم

وبمجتبهم بدخول الفاتح العظيم، واستقبله الأمير شمس الدين وقادة الجيش والوزراء والقضاة والأمراء، ومشوا معه حتى انتهى إلى منزل والده فجلس فيه يستقبل وفود المهتئين وأعيان البلد يرحبون به ويقدمون له ولاعهم، ويظهرون له محبتهم ورغبتهم في بقائه معهم، يُياعونه على الجهاد في سبيل الله، وقاتل الصليبيين وإخراجهم من كافة بلاد المسلمين ووضعوا خطة عسكرية أجمعوا على تنفيذها، وأتي لهم ذلك...؟ والكلمة متفرقة، والشمل غير ملتم، والأمراء مختلفون قد أبطرتهم النعمة، وأطغاهم الغنى، وأشغلتهم المناصب، فتشبتوا بالعروش، وآثروا النوم بالقصور، ومالوا إلى الدنيا فتمسكوا بها، وانشغلوا عن الواجب المقدس المنوط بهم، وتحولوا إلى دويلات كثيرة متعادية ومتناحرة، ورفضوا أن ينضموا إلى صلاح الدين ويتحدوا معه ليشكلوا قوة واحدة تفرض وجودها وسيطرتها في المنطقة وتستطيع دحر العدو بأيسر أمر.

لذلك قرّر السلطان صلاح الدين أن يتملك البلاد كلها ويسقط الملوك والأمراء ويجعلهم تحت قيادته بالسيوف إن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين، فنهض أولاً إلى حلب لما فيها من الفوضى والتسيب والتخبط، ومضى معتمداً على الله تعالى وتوفيقه ونصره وتأيدته، آملاً أن تُدلل له الصعاب، وتسهل له العقبات فهو لا يريد لهم الشر إنما يريد لهم الخير والسعادة

والسيادة والعزة في الدنيا والآخرة، فإن هم استجابوا له كانوا سعداء آمنين، وإلا فليأذنوا بحرب تُسقطُ تيجانهم، وتُسحقُ أنانيتهم، وتعرضُ قصورهم ومُلْكهم للزوال والدمار.

سقوط حلب وحمص وحماة

بيد صلاح الدين

ومضى صلاح الدين قاصداً مدينة حمص وهي أول مدينة تليه وهو في طريقه إلى حلب بعد أن غادر دمشق واستتاب عليها أخاه طغتكين بن أيوب، وكان يُلقب بسيف الإسلام، فلما بلغ حمص أخذها بكل يسر وسهولة، ثم تابع طريقه إلى حماة فأخذها من صاحبها عز الدين بن جبريل، وجعله سفيراً له عند أمراء حلب، فسار إليهم يحذرهم بأس صلاح الدين وعزمه على توحيد البلاد بالقوة إن لم يكونوا معه يداً واحدة على العدو المشترك.

فلم يلتفت الحلبيون إلى تحذير سفير صلاح الدين، بل سخروا منه واعتقلوه ورموه بالسجن، ولقد أقلق تأخره صلاح الدين، وحرك في نفسه الشك والريب فكتب إلى أمراء حلب كتاباً يستفسر فيه عن سبب تأخر سفيره، ويلوهم على ما هم

معركة حطين

فيه من الاختلافِ وعدمِ الائتلافِ خاصةً في مثلِ هذه الظروفِ
الحرجة التي يمرُّون بها.

فاستهانوا به وردّوا عليه بكلامٍ سيئٍ وبذيءٍ.
فرحفَ إليهمُ بجيشِهِ ليس غضباً لنفسِهِ، ولا انتقاماً لما بدرَ
منهم، إنّما غضباً لله تعالى وغيره منه على الإسلامِ، وحرصاً
على لم شملِهِم، وتوحيدِ كلمتِهِم، وجمعِ صفوفِهِم، وإنّه حينَ
يفعلُ ذلك إنّما يلتزم قولَ الله تبارك وتعالى : ﴿واعتصموا
بحبلِ الله جميعاً ولا تفرّقوا﴾^(١).

﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب
ريحكم﴾^(٢). ﷺ .

ولم يثنِ صلاحُ الدّينِ عن عزيمِهِ ولم يتراجع عن قرارِهِ، ولم
يردّد على ما أقدمَ عليه، ومضى بكلِّ حزمٍ وعزمٍ حتى دخلَ
حلبَ، فنوديَ بأهلِها أن يجتمعوا في موضعٍ يُقالُ لَهُ بابُ
العراقِ، فجعلوا يسوّفون ويماطلون، ويضعون شروطاً غيرَ
معقولةٍ، والسلطانُ يصغي إليهم ويعدهم بالتزامِها وتنفيذِها،

^(١) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

^(٢) الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

ولقد نُفَذَتْ جميعُها فعلاً، ولكنهم ظلّوا على مخالفتهم، فغدروا به وبيّتوا له الشرّ والعدوانَ، وانضمَّ إليهمُ الأمراءُ المقدّمون والقادةُ العسكريون، وحرّضوا الناسَ على قتالِهِ، واستعملوا معه الغدرَ والمكيّدةَ، فأرسلوا إليه عدداً من الفرسان ليقتلوه غدرًا فلم يُفْلِحوا، ولكنهم قتلوا عدداً من أمرائِهِ، فلَمَّا اطَّلَعَ على حقيقة أمرِهِم قَتَلَهُم جميعاً.

فلَمَّا يَسَّسُوا من مقاومَتِهِ، أرسلوا إلى القومص^(١) الصليبي صاحب طرابلس يستنجدون به، ويذّلون إليه أموالاً كثيرةً إنْ هوَ طَرَدَ صلاحَ الدّين عنهم.

وكان هذا القومصُ قد أسره نورُ الدّين رحمةَ الله تعالى، وبقي معتقلاً عنده عشرَ سنينَ، ثم افتدى نفسه بمائة ألفِ دينارٍ، وألفِ أسيرٍ من المسلمين، فكان لا ينسى ذلكَ لنورِ الدّين.

فلَمَّا بَلَغَهُ كتابُ الحلبيين قصدَ حمصَ ليأخذها من صلاحِ الدّين، فركبَ إليه صلاحُ الدّين الذي أرسلَ سريةً إلى طرابلسَ فقتلوا وأسروا وغنموا مغنمَ كثيرةً، وأظهروا للصليبيين القوةَ

(١) القومص : هو الكونت عند الفرنجة واسمه رموند ولعلها رتبة عسكرية، أو تسمية لحاكم المدينة.

والبأس، وأثبتوا لهم أنهم بالمرصاد يرقبون حركاتهم وسكناتهم، ثم ينقضون عليهم في الوقت المناسب.

فلما علم القومص بغزو طلائع صلاح الدين طرابلس من جهة، ومجيئه للقائه من جهة أخرى وفي وقت واحد نكص على عقبيه، وكرّ راجعاً إلى بلده، ورأى أنه قد أجابهم إلى ما أرادوا منه، وقام بما وعدهم ولكنه لم يوفق، والحمد لله رب العالمين.

هذا ... وكان أمراء حلب قد كاتبوا صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود أخا نور الدين محمود بن زنكي، فبعث إليهم أخاه عز الدين في عساكر كثيرة، وانضم إليهم الحلبيون، واستغلوا غيبة صلاح الدين وانشغاله بالقومص وتحديد عمارة قلعة حمص، فقصدوا مدينة حماة لاسترجاعها من جماعة صلاح الدين.

فلما بلغه خبرهم سار إليهم في قلعة من الجيش، وكانوا جحافل كثيرة، فلما رأوا قلعة من معه، هموا بمناجزته، واعتبروا ذلك فرصة لهم لعلهم يكسرونه ويطردونه من الشام، فجعل يداريهم ويدعوهم إلى الصلح لعل الجيش يتبعه، فرفضوا جميع

عروضيه، وآبوا أن يصالحوه، وأصبروا على القتال، فجعل جيشه كدروساً^(١) واحداً، ثم قاتلهم وصبر ومن معه صبراً جميلاً، فأيدّه الله تعالى بآبٍ أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ومعه أخوه فروخ شاه في طائفة من الجيش، فما كاد الحليون يروّهم حتى ظنّوا أنّهم مقدّمه لجيش كبير، فوقع الرعب في قلوبهم وولوا هاربين، فأسروا منهم عدداً كبيراً، وأمر صلاح الدين مناديه أن لا يتبعوا هارباً، ولا يذقوا^(٢) على جريح، ثم أطلق سراح الأسرى، ومضى إلى حلب، فاجتمعوا إليه يعرضون عليه الصلح والسلام ويعطونه معرة النعمان، وكفر طاب، وملردين زيادة على ما بيده من أراضي حمص وحماة على أن يكف عنهم، فقبل ذلك منهم، ورجع مؤيداً منصوراً، فلما كان بحماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله يحملون إليه الخلع السنية، والهدايا الثمينة، وتوقيع الخليفة بتوليته سلطاناً على مصر والشام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وبذلك قوي سلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، واتسعت رقعة مملكته، وتمهّدت له الأمور، وكثرت أمامه الجيوش، وأصبح على استعداد لشنّ إغاراته على الصليبيين،

^(١) الكردوس : الخيل العظيمة، أو القطعة من الخيل العظيمة، والمراد جعل جيشه فرقة واحدة.

^(٢) يذقوا : يجهزوا

وإعلان حربٍ قويةٍ كفيّلةٍ بكسرِ شوكتِهِم وطردِهِم من بلادِ المسلمين.

موقعة الكرك

لم يكذُ صلاحُ الدينِ يتوّجُ سلطاناً على مصرَ والشامِ، وتدينُ له البلادُ، وتخضعُ له القادةُ والأمراءُ حتى وضعَ خطةً لمباغطةِ الفرنجِ، والقيامِ بحربٍ شاملةٍ تسحقُهُم سحقاً، وإذا بالأنباء ترفعُ إليه أن البرنس صاحبَ الكرك قد عزمَ على غزوِ تيماء^(١) من أرضِ الحجازِ لِيَسْهُلَ عليه الوصولُ إلى مدينةِ رسولِ الله ﷺ، فأرجأ صلاحُ الدينُ تنفيذَ خطتهِ الحربيةِ ليتفرَّغَ لأميرِ البرنس، ثم يعودَ إلى تنفيذِها.

وكانَ البرنسُ بعملِهِ هذا يريدُ أن يقطعَ على الحجاجِ طريقَهُم، ويؤذيَ تجارَ المسلمين بما استطاعَ إليه من سبيلٍ، فبلغتْ أذيتُهُ البرَّ والبحرَ، وخشيَ أهلُ المدينةِ من شرِّه، وخلفوا أن يستفحلَ أمرُهُ فيدخلَ المدينةَ المنورةَ فينالَ من صاحبِها عليه الصلاة والسلامُ، فأصدرَ السلطانُ صلاحُ الدينُ أمرَهُ بالتصدّي

(١) تيماء : بلدة في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حجاج الشام ودمشق.

معركة حطين

لَهُ وَمَنْعِهِ مِنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، فَتَصَدَّى لَهُ الْأَمِيرُ حَسَامُ الدِّينِ
لَوْلُو، فَظَفَرَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ وَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَانْتَصَرَ
عَلَيْهِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَمَعَارِكَ عَدِيدَةٍ، وَمَتَّعَهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى
مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ صَلَاحَ الدِّينِ لَمْ يَطْمَئِنَّ، وَلَمْ تَهْدَأْ نَفْسُهُ قَبْلَ
أَنْ يَغْزُوا الْكُرْكَ وَيظْفَرَ بِالْبِرْنَسِ، فَجَهَّزَ الْجَيْشَ وَجَعَلَ أَخَاهُ
الْعَادِلَ نَائِبًا عَنْهُ فِي حَلَبَ، وَصَحِبَ مَعَهُ ابْنَ أَخِيهِ تَقِيَّ الدِّينِ
عَمَرَ، وَمَضَى بِجَيْشِهِ إِلَى الْكُرْكِ فَحَاصَرَهَا مَدَّةَ شَهْرٍ كَامِلٍ، فَلَمْ
يَظْفَرْ مِنْهَا بِشَيْءٍ وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِ أَهْلُهَا، وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ أَبْوَابُهَا.
وَبَيْنَمَا هُوَ مُحَاصِرُ الْكُرْكِ إِذْ بَلَغَهُ أَنَّ الْفَرَنْجَ قَدْ اجْتَمَعُوا لَهُ،
وَجَهَّزُوا جِيوشًا عَظِيمَةً لِيَمْنَعُوهُ مِنْ دُخُولِ الْكُرْكِ، فَكَّرَ رَاجِعًا
إِلَى دِمَشْقَ وَفِيهَا جَمَعَ جَمُوعَهُ، وَاسْتَدْعَى الْأُمَرَاءَ وَالْفَرَسَانَ مِنْ
حَلَبَ وَمِصْرَ وَسِنْجَارَ^(١) وَالْجَزِيرَةَ وَغَيْرَهَا أَنْ يَقْدُمُوا عَلَيْهِ لِقِتَالِ
الْفَرَنْجِ، فَأَخَذَهُمْ وَمَضَى بِهِمْ إِلَى الْكُرْكِ فَضَرَبَ عَلَيْهَا حَصْرًا
مُحْكَمًا، وَثَبَتَ حَوْلَهَا الْمِجَانِيْقَ لِرُمِيِ الْحِجَارَةِ وَكَتَلَ النَّارَ الْمُتَلَهِّبَةَ،

(١) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. انظر معجم البلدان.

معركة حطين

وأصرَّ على فتحها وتحريرها من الفرنج، ذلك أنه رأى أن فتحها أنفع لمصلحة المسلمين، وآمن للحجاج من فتح غيرها، ذلك أن أهلها يقطعون الطريق على الحجاج، ويشكلون خطراً عليهم وعلى التجار وفي فترة حصاره للكرك بلغه أن الفرنج قد اجتمعوا له مرة أخرى، فترك الحصار وقصدهم، فدارت بينهم وبينهم معركة قوية طاحنة انتهت بهزيمة الفرنج، فتبعهم بفرسانه وجنوده الشجعان فقتل منهم مقتلة عظيمة، ومن نجوا منهم ضاع في شرق الأرض وغربها لا يريد إلا أن ينجو بنفسه.

هذا ... وأصدر صلاح الدين أوامره بالإغارة على السواحل لخلوها من المقاتلين ففعلوا، ثم دخلوا نابلس^(١) وأغاروا على ما حولها من القرى والمزارع فقتلوا من اعتصم فيها من جنود الفرنج، وسبوا وغنموا مغنم كثيرة، ثم رجعوا إلى دمشق متوجين بالنصر والظفر وتأيد المولى ﷺ .

(١) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ.

معركة حطين

معركة الموصل^(١)

لم يكذب صلاح الدين وجنوده يدخلون مدينة دمشق،
ويلتقطون أنفاسهم، يأخذون قسطاً من الراحة، حتى وردت
الأنباء إلى صلاح الدين أن صاحب الموصل قد نزل إربل^(٢)،
فبعث صاحبها يستصرخه ويستنجد به، فهب من فوره يُجده،
ومضى قاصداً الموصل، فلتقاه الملوك من كل جهة، واجتمعوا
حواله يقدمون له ولأهله وطاعتهم ويعرضون عليه خدماتهم،
ومن بينهم نور الدين صاحب إربل الذي خضعت له ملوك
تلك الناحية، ثم سار إلى الموصل فحاصرها عدة أيام ولم
يفتحها، ولو أراد ذلك لفعل ولكنه أراد إظهار هيئته ليمنع أهل
تلك البلاد من الاختلاف والافتتال، وليثبت لهم حرصه على
وحدة المسلمين وجمعهم تحت راية الإسلام وقيادة موحدة.
فجاء أمراء الموصل وصالحوه على أن يكونوا من جنده
متى ندبهم لقتال الفرنج، وتلك أمنية صلاح الدين، وجل ما
يسعى إلى تحقيقه.

^(١) الموصل : مدينة قديمة مشهورة على طرف دجلة، ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى، وسميت
بالموصل، لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، أو بين دجلة والفرات. انظر معجم البلدان
^(٢) إربل : قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، شبيهة بقلعة حلب إلا أنها
أكبر وأوسع رقعة، وهي بين الزابن وتعد من أعمال الموصل بينهما مسيرة يومين.

وفي أثناء وجوده في تلك البلاد لازمه مرض شديد أفقده وأفقده قوته ولكنه كان يكتُم ذلك ويطويه في نفسه ولا يُظهر منه شيئاً، حتى قويَ عليه وغلبه فلم يستطع له دفعاً ولا مقاومة، حتى بلغ حران^(١) فخيّم هنالك من شدة الألم، وشاع خبر مرضه في البلدان، وخشي عليه المسلمون، وأخذ الكفار والمرجفون يذيعون في البلاد موت صلاح الدين، فحاء أخوه العادل من حلب بالأطباء والأدوية، فرأه في غاية الضعف، فأشار عليه أن يوصي، فقال : ما أبالي وأنا أترك من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، وكان رحمه الله تعالى يقصدُ بأبي بكر أخاه العادل، وبعمر أخاه تقي الدين صاحب حماة، وكان إذ ذاك نائبه في مصر وهو بها مقيم، وبعثمان ابنه العزيز، وبعلي ابنه الأفضّل.

ثم نذر لنن شفاه الله من مرضه هذا ليصرفنّ وقته وجهده لقتال الفرنج، ولا يُقاتل بعد ذلك مسلماً، وأن يكرّس طاقته وهمة لفتح بيت المقدس، ولو بذل في سبيل ذلك جميع ما يملكه

(١) حران: مدينة عظيمة مشهورة، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. انظر معجم البلدان

من الأموال والأسلحة والرجال، وأن يقتل البرنس صاحب الكرك بيده ، لأنه نقض عهده، وشتّم الرسول ﷺ ونال منه، وذلك أنه تعرّض يوماً لقافلة للمسلمين ذاهبة من مصر إلى الشام، فاسرّ الرجال وضرب أعناقهم، واستلب ما في القافلة من مال، وهو يقول : أين محمدكم ؟ دعوه ينصركم.

ثم من الله ﷻ على صلاح الدين بالشفاء من مرضه الذي قال عنه : إنه كفارة لذنوبه، وقال الناس : إنه نعمة من الله تعالى ليعلمن حربته على الفرنج ويُنزل بهم بأسه ونقمته .

وانتشرت بشرى شفاء صلاح الدين في البلاد، وفرح بها جميع العباد واستبشروا بها خيراً، وكتب الفاضل من دمشق إلى المظفر عمر : أن العافية الناصرية قد استقامت واستفاضت أخبارها، وطلعت بعد الظلمة أنوارها، وظهرت بعد الاختفاء آثارها، وولت العلة، والله الحمد والمنة، وطُفِئت نارها، وانجلي غبارها وخُمد شرارها، وما كانت إلا فلتة وقسى الله شرها وشنارها، وعظيمة كفى الله الإسلام عارها، وتوبة امتحن الله بها نفوسنا، فرأى أقل ما عندها صبرنا، وما كان الله ليضيع

الدعاء وقد أخلصته القلوب، ولا تتوقف الإجابة وإن سَدَّتْ
طريقها الذنوب، ولا ليخلف وعد فرج وقد أيسر الصاحب
والمصحوب.

نعم زاد فيه الدهر ميمًا فأصبح بعد بؤسائه نعيمًا
وما صدق النذير به لأكي رأيت الشمس تطلع والنجوم
وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر غضة جديدة،
والعزيمة ماضية حديدة، والنشاط إلى الجهاد، والتوبة لرب
العباد، والجنة مبسوطة البساط، وقد انقضى الحساب وجزنا
الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال التي لخوفها كاد الجمل يلج
سم الخياط، ثم ركب السلطان من حران بعد العافية فدخل
حلب، ومنها انتقل إلى دمشق وقد تكاملت عافيته، وكان يوماً
مشهوداً. انتهى من البداية والنهاية.

معركة حطين

سنة ٥٨٣هـ

بعد هذه الحروب الكثيرة، والمعارك الطاحنة التي خاضها
السلطان صلاح الدين وهو حريص على توحيد بلاد المسلمين
رغم ما لقيه من غدر وخديعة أحياناً، وتآمر وعدوان أحياناً

معركة حطين

أخرى، ورغم ما أصابه من مرضٍ أقعده وحال بينه وبين ما يريد، رغم كل هذا عبأ جيشه ومضى به من دمشق في أول شهر محرم حتى انتهى إلى بصرى^(١)، فأمر الجيش أن يترجل، وأن تضرب الخيام، وجلس هنالك ينتظر قدوم الحجاج وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين ليحميهم من البرنس وجيشه.

فلما وصل الحجاج سالمين، انطلق صلاح الدين بجيشه فنزل الكرك وأمر بقطع ما حوله من الأشجار، وأرسل الخيل والأنعام لترعى أهل الكرك وتأكل ثمارهم، وبينما هو في موقفه هذا ينتظر قدوم جيوشه من مصر وحلب وغيرهما من الأمصار إذ جاءت الجيوش المصرية، وتوافت إليه العساكر المشرقية، وأرسل سرية إلى معسكر الفرنج للتحرش بها، ولجس نبضها، فقتلت وأسرت، وغنمت ورجعت فاستبشّر بذلك خيراً، واعتبره مقدمة لفتح كبير، ونصر عظيم، وكان جملة من معه من المقاتلين اثني عشر ألفاً غير المتطوعين.

(١) بصرى : مدينة معروفة ومشهورة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران.

فلما انتهت الأنباء إلى الفرنج بقُدوم صلاح الدين
لما جرتهم نبذوا خلافتهم، وتصالحوها فيما بينهم، واجتمعوا
لقتالِهِ، ثم انطلقوا بجَدِّهم وحديدِهِم حاملين رايات الطاغوتِ،
ومزينين صدورَهُم بصليب الصلوتِ في عدد كبير جداً لا
يعلمُهُ إلا الله، قيل كانوا ثلاثة وستين ألفاً، قد رفعوا راياتَهُم،
ونشروا أناجيلَهُم، ورتلوا أناشيدَهُم، جاؤوا يحادون الله
ورسولَهُ، يقاتلون في سبيل الطاغوتِ، ويصدون عن سبيلِ الله.
في الوقتِ الذي وقفَ فيه السلطانُ صلاحُ الدينِ يخطبُ
بجيشِهِ ويأمرُ جنودَهُ بالصبرِ والثباتِ وتقوى الله تعالى،
وإخلاصِ النيةِ في جهادِ الأعداءِ، (الذين آمنوا يقاتلون في سبيلِ
الله والذين كفروا يقاتلون في سبيلِ الطاغوتِ فقاتلوا أولياءَ الشيطانِ
لنَّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً) ^(١).

و (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع
الصابرين) ^(٢). ﷺ

وعلى الرغم من الفارق الكبير بين الجيشين، حيث لا تكافؤ
بينهما في العدد والعُدَّة، فلقد ألقى اللهُ ﷻ الرعبَ في قلوبِ
الفرنج، وحسبوا أن المسلمين يفوقونهم عدداً وعدة، فقال لهم

^(١) الآية ٧٦ من سورة النساء.

^(٢) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة.

القَوْمُصُ صاحبُ طرابلسَ وهو يخوفُهم : أحسبُ أنَ المسلمينَ
يفوقونا عدداً وعدةً ...!!

فاعترضَ عليه البرنسيُّ صاحبُ الكركِ وقالَ لَهُ : لا أشكُ
أنَّكَ تحبُّ المسلمينَ وتخوفنا كثرتهم، وسترى نتيجةَ ما أقولُ
لك.

وهكذا اختلفتْ كلمتُهم، وضعُفتْ قوتُهم، وأصبحَ
بعضُهم لبعضٍ بالمرصاد، يرقبُ كلُّ أميرٍ منهم حركةَ صاحبه،
ويفسرُ كلامه تفسيراتٍ شتى، حتى فُقدتِ الثقةُ بينهم، وذلك
تقديرُ العزيزِ العليم، ولأشكُّ أنَ هذا لصالحَ المسلمينَ جملةً
وتفصيلاً.

دخولُ صلاحِ الدينِ طبريةَ

في حين اختلفتْ كلمةُ الفرنج، وضعُفتْ قوتُهم ازدادَ
المسلمونَ قوةً ونشاطاً ورغبةً بقاءِ العدوِّ.

فنهضَ صلاحُ الدينِ بجنوده الشجعانَ ففتحَ طبريةَ^(١)،
وتزوّدَ منها بالطعامِ والأمتعةِ واحتلَّ موقعاً استراتيجياً هاماً

^(١) طبرية : بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل وجبل
الطور مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الفجر، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام،
وكذلك بينها وبين بيت المقدس، وبينها وبين عكا يومان. انظر معجم البلدان.

فسيطر على البحيرة ليستفيد من مائها ولا يستفيد منها الفرنجُ قطرةً واحدةً، تماماً كما حصل للمسلمين يوم بدر، حيث وقف رسول الله ﷺ في العدو الدنيا ليسقي أصحابه من ماء بدر، ويحول بين المشركين وبين الوصول إلى الماء، ولا شك أن لهذا الأمير تأثيراً سلبياً للفريق البعيد عن الماء خاصة في أشهر القيظ حيث الحرُّ وحرارة الشمس اللاهبة، فلقد حدثت هذه المعركة في شهر تموز وفي أوج اشتداد الصيف.

وفي صبيحة يوم الجمعة الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كان خروج صلاح الدين من دمشق إلى طبرية، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر حيث ساعة إجابة الدعاء.

ثم تحول صلاح الدين من بحيرة طبرية فوقف على سطح الجبل ينتظر قدوم الفرنج، فلم يأتوا، ولم يتقدموا إليه خطوة واحدة، فلما رآهم لا يتقدمون إليه نزل إلى قرية طبرية فاحتلها في ساعة واحدة، وقتل المقاتلين وأسر، وسبي، وحرق، فلما بلغ العدو ما جرى في طبرية فلقوا لها وارتحلوا نحوها فلما علم

صلاح الدين بذلك ترك على طبرية مَنْ يحاصرُ قلعتها، ولحق بالعدو فالتقى به على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، وحال الليل بين الفريقين اللذين باتا في أهبة تامة، وترقب شديد، وكل منهما متحفز يرقب تحركات خصمه، منتظر بزوغ الفجر للانقضاض عليه وتوجيه ضربة قاضية تشل حركته، وتجعله عاجزاً عن المقاومة ومتابعة المعركة ... فلنتظر !!

بدء القتال

وفي صبيحة يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر نفسه التقى الجيشان، وتصافا للنزال، وقد أسفر وجه الإيمان، وأغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، وبدأ القتال، والتحم الفريقان، وتنازل الفرسان، وتصايح المسلمون : أحد ... أحد، وحمي وطيس المعركة، واشتد أوارها، وضاق الخناق بالفرنج وهم في أرض المعركة يتساقطون، كأنهم يُساقون إلى الموت وهم ينظرون، وقد أيقنوا بالهلاك، وفرسان المسلمين ينقضون عليهم من هنا وهناك، فشعروا بالويل والثبور وأدركوا أنهم عما قليل سيصبحون من أهل القبور.

ولم تزل الحرب تضطرم، والفارسُ مع قرنيه يصطدم، فلم يبقَ إلا القليلُ للنصرِ والظفرِ، ووقوع الشرِّ والوبالِ على مَنْ كفرَ، حتى منعَ ذلكَ دخولَ الليلِ الذي خيمَ على الفريقين بظلامه، وبات كلُّ واحدٍ من الفريقين في سلاحه إلى صبيحة يوم السبت، وكان المسلمون قد تحققوا أن مِنْ ورائهم هَرُ الأردن، وَمِنْ أمامهم العدو، وأنه لا يُنجيهم إلا الصبرُ والثبات وإخلاصُ النية في الجهادِ في سبيلِ الله، فحملوا على عدوهم من كلِّ جهة، وانقضوا على القلب، وصاحوا صيحة رجل واحد أفزعَت العدو، وألقت الرعبَ في قلوبهم، وارتفعت الشمسُ وسطعت حرارُها على وجوه الفرنج، واشتدَّ الحرُّ، وأصابهم العطشُ، وكان العشبُ تحتَ أقدام خيولهم قد صارَ هشيمًا، فكانَ ذلكَ نذيرَ شؤمٍ لهم إذ أن صلاحَ الدين أمرَ جنوده أن يرموا بالنفطِ على العشبِ، ويتبعوه بالنار، فتأجج العشبُ نلراً تلظى تحت سنايكِ خيولهم، فاجتمعَ عليهم حرُّ الشمسِ، وحرُّ العطشِ، وحرُّ النارِ، وحرُّ السلاحِ، وحرُّ رشقِ النبالِ، وضربِ السيوفِ، وطعنِ الرماحِ، فكانتِ الطامةُ الكبرى، والخسارةُ العظمى، والهزيمةُ النكراءُ البشعة، وكان حقاً على الله نصرُ المؤمنين.

العزيزية

فلما أحسن القومض^(١) بالهزيمة والخذلان، أخلى موقعه وهرب من المعركة منذ أحداثها الأولى وقصد مدينة صور^(٢)، فتبعه جماعة من المسلمين فأفلت منهم، وكفى الله المؤمنين شره.

هذا ... وأحاط المسلمون بالفرنج من كل جانب، وأنخنوهم بالسيوف والرماح، ورموهم بالسهم، وسقوهم كأس الحمام، فأعطوهم ظهورهم وهربوا أمامهم وقد أصبحوا في هروبهم هذا فرقتين : فرقة تبعها أبطال المسلمين فلم ينسج منها أحد وفرقة اعتصمت بتل يقال له تل حطين، وهي قرية يقال إن عندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فحاصرها المسلمون وضيقوا عليهم، وأشعلوا حولهم النيران، حتى اشتد بهم العطش، ونال منهم الخوف، وخيم عليهم شبح الموت، وكادوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل لشدة ما أصابهم من الرعب واليأس من النجاة، فمن استسلم منهم وقع أسيراً ونجا من القتل، ومن أبى قتل ذليلاً مهاناً.

(١) القومض : هو الكونت كما تقدم واسمه ريموند صاحب طرابلس.
(٢) صور : مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام داخلية في البحر مثل الكف على الساعد بينها وبين عكا ستة فراسخ، وهي إلى الشرق من عكا. انظر معجم البلدان.

ولقد قتل منهم في هذه المعركة ثلاثون ألفا ، وأسر ثلاثون ألفا آخرون.

قال ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين : ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصا واحدا معه نيف وثلاثون أسيرا قد ربطتهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الذل والخذلان.^(١)

وباع بعضهم أسيرا بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.^(٢) ولقد أسر جميع قادة الفرنج وملوكهم وهم : ملوك عكا^(٣)، وكفرنكا^(٤)، والناصر^(٥)، وصور، والكرك، وغيرهم، أما القومص ريموند صاحب طرابلس فقد هرب كما تقدم وكان مصابا بجروح مات على أثرها بعد وصوله إلى طرابلس. وغنم المسلمون غنائم كثيرة تركها الفرنج الهاربون، وكان فيها صليبيهم الذي يقولون عنه: إنه الصليب الأعظم، وهو

(١) وفیات الأعيان ج ٧ ، ص ١٧٦ .

(٢) البداية والنهاية.

(٣) عكا: بلد على ساحل بحر الشام من أرض فلسطين، والعكة: الرملة حيث عليها الشمس.

(٤) كفرنكا: لم يذكرها ياقوت في معجمه، ولعلها بأرض فلسطين إذ ألفا ذكرت مع عكا والناصر وهما من أرض فلسطين كما هو معلوم.

(٥) الناصرة: قرية بفلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا.

الذي يزعمون أنه صُلبَ عليه المصلوب، وقد غلّفوه بالذهب الخالص، والآلئ الثخينة، والجواهر النفيسة، وقد وضعه السلطان صلاح الدين بين الغنائم، والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

الخاتمة

انتهت معركة حطين المظفرة بنصر ساحق للمسلمين، وهزيمة ماحقة ومنكرة للفرنج الصليبيين. ولسوف تبقى هذه المعركة الخالدة حية في نفوس العرب والمسلمين يفخرون بها، ويتغنون ببطولاتها وأمجادها إلى يوم القيامة، وحق لهم أن يتغنوا بها لأنها من صنع الآباء والأجداد العظام الذين بقيت ذكراهم وستبقى غرة في جبين التاريخ. لقد انتهت المعركة الخالدة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمر السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بضرب مخيم عظيم، ونصب سرير المملكة فجلس عليه عزيزاً كريماً، منصوراً مظفراً، وحيء بالأسارى مقيدى بالسلاسل والأغلال، فأوقفوا بين يديه أذلاء صاغرين، منكسين أعناقهم مطأطين رؤوسهم، وقد علتهم المهانة، ولبستهم المذلة، وإذا وجوههم مغيرة، ترهقها قفرة، أولئك هم الكفرة الفجرة.

ثم أمر صلاح الدين بضرب أعناق جماعة كانوا قد أساءوا
للمسلمين، وذكر الناس عنهم أموراً فاسدة كثيرة، هذا
والأسارى بين يديه، ولم يترك أحداً منهم ممن كان يذكر الناس
عنه شراً إلا أمر بقتله.

ثم جيء بملوكهم فأجلسوا بين يديه، وأرناط صاحب
الكرك معهم، وإن هذا الأخير له حساب خاص وجدد عسير.

وجيء بشراب مثليج فوضع بين يدي السلطان صلاح
الدين فشرب منه، ثم أعطي أحد ملوك الفرنج فشرب منه، ثم
أعطي أرناط برنس الكرك فأخذه فغضب صلاح الدين وقال
له: إنما أعطيتك ولم أذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندي،
ثم قام مغضباً فدخل خيمة داخل تلك الخيمة فاستدعى أرناط
صاحب الكرك، فلما أوقف بين يديه دعاه إلى الإسلام،
فامتنع، فقال له: نعم، أنا أنوب عن رسول الله ﷺ في الانتصار
لأمتي، ثم قتله بيده، لأنه أقسم أن يقتله بيده، وأرسل برأسه إلى
الملوك في الخيمة، وقال لهم: إن هذا تعرض لسب رسول الله
ﷺ وكان أرناط وغيره قد مضى عليهم عدة أيام لم ينوقوا فيها

الماء، ولم تُبَلَّلْ شفاهُمُمْ بقطرة ماءٍ واحدة، لأنَّ المسلمين كلنوا مسيطرين على بحيرة طبرية ينتفعون من مائها في حين لم ينتفع الفرنج منها بشيء.

ولقد غضبَ صلاحُ الدين حين أُعطيَ أرناطُ كوبِ الشراب، ثم منعهُ منه لأنَّ من عادة العرب وكرمِ أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شربَ من مالٍ من أسره أَمِنَ من القتل واستبشر بالغفر، أما أرناطُ فلا عهدَ له ولا أمانَ عند السلطان صلاح الدين للجرائم البشعة التي ارتكبتها، ولتعريضه لسبِّ رسول الله ﷺ وأذيتِه للمسلمين، ولا يحقُّ المكرُّ السيِّئ إلاَّ بأهله.

ولقد نالَ جزاءُ العادل، والجزاءُ من جنسِ العمل، وكملة تدينُ ثدانُ.

تمت الرسالة والحمد لله رب العالمين

واللقاء مع معركة إسلامية أخرى

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	- معركة حطين : تمهيد
٤	- التعريف بصلاح الدين
٥	- اسمه ونسبته
١٣	- لقبه
١٤	- أخلاقه وتواضعه
١٥	- مولده
١٦	- سبب خروج نجم الدين أيوب من تكريت
١٨	- نشأته
١٩	- حروبه
٢١	- معركة بليس
٢٤	- عودة شيركوه إلى مصر ثانية
٢٦	- مقتل الوزير شاور
٢٩	- وصول صلاح الدين الوزارة
٣٢	- وقعة الأحباش
٣٦	- معركة دمياط
٣٩	- خروج الفرنج من دمياط
٤٢	- رؤيا صالحة
٤٣	- وفاة العاضد
٤٦	- من هم الفاطميون وما نسبهم

الصفحة	الموضوع
٥١	- أثر الخلافة الفاطمية
٥٤	- الفاطميون في الميزان
٥٦	- خلاف بين نور الدين وصلاح الدين
٦٠	- رسالة من صلاح الدين الى نور الدين
٦٣	- بين يدي معركة حطين
٦٦	- بين صلاح الدين وبعض أمراء المسلمين
٦٩	- وقعة أسوان
٧٠	- دخول صلاح الدين دمشق
٧٢	- سقوط حلب وحمص وحملة بيد صلاح الدين
٧٧	- موقعة الكرك
٨٠	- موقعة الموصل
٨٣	- معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ
٨٦	- دخول صلاح الدين طبرية
٨٨	- بدء القتال
٩٠	- الهزيمة
٩٢	- الخاتمة
٩٥	- الفهرس

مَعَارِكُ عَرَبِيَّةٍ خَالِدَةٌ

١٨

معركة بيت المقدس

إعداد

عبد القادر شيخ إبراهيم

دار القلم العربي



منشورات
دار القلم العربي
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1421 هـ - 2001 م

معلومات النشر :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب: 78 هاتف: 2213129 فاكس: 2212361 +963 21

البريد الإلكتروني: qalam_arabi@naseej.com E-mail :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معركة بيت المقدس

تَمْجِيدٌ

سُمِّيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمَكَانُ الَّذِي يُتَقَدَّسُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، أَيْ يَتَطَهَّرُ .

وَبِنَاءُ قُدْسٍ كَيْفَمَا تَصَرَّفَ فَإِنْ مَعْنَاهُ التَّطَهُّرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ^(١)) يَعْنِي الطَّاهِرُ .

وَمِنْهُ : ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ^(٢)﴾ أَيْ الْمَطْهَرَةَ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ^(٣)﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَنُقَدِّسُ لَكَ ^(٤)) أَيْ نَعْظُمُكَ وَنُجَدِّدُكَ وَنَطْهَرُ ذِكْرَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ .

(١) الآية ٢٣ من سورة الحشر .

(٢) الآية ٢١ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١٦ من سورة النازعات .

(٤) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

قال الضحاك وغيره : المعنى نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك .

ومنه قيل للسطلِ قدسٌ ، لأنه يُتوضأُ به ويُتطهرُ ، وفي الحديث : (لا قُدُسَتْ أمةٌ لا يُؤخذُ من ضعيفها لقويها)^(١) أي لا طهرها الله ، فالقدسُ : الطهرُ من غير خلاف .

وقيل للراهب : مقدسٌ ، ومنه قولُ امرئ القيس :
فأذركنه يأخذن بالساقِ والثما كما شبرق الولدانُ ثوبَ المقدسِ
أي أن صبيانَ النصارى يتبركون به ، يأخذون خيوطَ ثوبه حتى يتمزق .

والمرادُ ببيت المقدس ، البيت الطاهر المبارك ، قال الله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(٢) .

وقال الشاعر :
قل للفرزدقِ والسفاهةِ كاسمِها إن كنتَ تاركٌ ما أمرتكُ فاجلس
ودع المدينةَ إنما محنورةٌ والحق بمكة أو ببيت المقدس^(٣)

(١) الحديث رواه ابن ماجه .

(٢) الآية ١ من سورة الإسراء .

(٣) محنورة : أي مخوفة ، وحلر الشيء إذا خافه ، وهو محلور ، أي مخوف .

فتح بيت المقدس

فضائل بيت المقدس

فضائل بيت المقدس كثيرة جداً، ولو لم يكن له سوى فضيلة ذكره في القرآن الكريم ووصفه بالبركة لكفته، قال الله تعالى : (إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ... الآية)^(١)

وقال تعالى : (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين)^(٢) هي بيت المقدس .

وقوله تعالى لبني إسرائيل : (وواعدناكم جانب الطور الأيمن)^(٣) يعني بيت المقدس ، وقوله تعالى حكاية عن عيسى بن مريم وأمه : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٤) أي بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرَفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^(٥) المراد بيت المقدس، روي جميع ذلك عن مقاتل .

وقال رسول الله ﷺ : (لا تُشَدُّ الرحالُ إلَّا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى)^(٦) .

(١) تقدم تخرجها .

(٢) الآية ٧١ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٨٠ من سورة طه .

(٤) الآية ٥٠ من سورة المؤمنون .

(٥) الآية ٣٦ من سورة النور .

(٦) رواه مسلم .

وروي أن الصلاة في بيت المقدس خير من ألف صلاة في غيره ، وأقرب بقعة في الأرض من السماء البيت المقدس ، ويمنع الدجال من دخولها ، ويهلك يأجوج ومأجوج دونها .

وفي الخير : مَنْ صَلَّى في بيت المقدس فكأنما صَلَّى في السماء ، ورفع الله عيسى ابن مريم إلى السماء من بيت المقدس ، وفيه مهبطه إذا هبط ، ^(١) وتُزَفُّ الكعبة بجميع حجاجها إلى بيت المقدس ، يُقال لها : مرحباً بالزائر والمزور .

ومن فضائله أن آدم عليه السلام أوصى أن يدفن فيه ، وكذلك إسحاق وإبراهيم ، وحُمل يعقوب من أرض مصر حتى دُفن فيه ، وأوصى يوسف عليه السلام حين مات بأرض مصر أن يحمل إليه ، وهاجر إبراهيم عليه السلام من كوثي إلى أرض بيت المقدس ، وإليها المحشر ، ومنها المنشر ، وتاب الله على داود بها ، وصدق إبراهيم الرؤيا بها ، وكلم عيسى الناس في المهد بها ، وتقاد الجنة يوم القيامة إليها ، ومنها يفرق الناس إلى الجنة أو إلى النار .

وتُزَفُّ جميع مساجد الأرض إلى البيت المقدس .

^(١) وهذا مناقض للخبر الآخر القائل بأن مهبطه في مسجد دمشق . والله أعلم .
فتح بيت المقدس

وروي أن أول شيء حُسرَ عنه الطوفان صخرة بيت المقدس، وفيه ينفخ في الصور يوم القيامة، وعلى صخرته ينادي المنادي يوم القيامة .

وقال الله تعالى لسليمان بن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء بيت المقدس : سَلِّمْ عَلَيَّ ... ؟
قال : ياربُّ ، أسألك أن تغفرَ لي ذنبي .
قال : لك ذلك .

قال : ياربُّ ، وأسألك أن تغفرَ لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه .
قال : لك ذلك .

قال : وأسألك مَنْ جاء فقيراً أن تغنيه .
قال : لك ذلك .

قال : وأسألك مَنْ جاء سقيماً أن تشفيه .
قال : وَلَكَ ذلك ... ذكر جميع ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل الله حكماً يوافق حكمه، وملاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه الله ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : البيتُ المُقَدَّسُ
بَنَتْهُ الْأَنْبِيَاءُ، وَسَكَنَتْهُ الْأَنْبِيَاءُ، مَا فِيهِ مَوْضِعٌ شَبِيرٌ إِلَّا وَقَدْ صَلَّى
فِيهِ نَبِيٌّ، أَوْ قَامَ فِيهِ مَلَكٌ.

ومن فضائل بيت المقدس أنه من أول البيوت التي
أُقيمت في الأرض على الإطلاق، وقد ذكر المفسرون ذلك في
تفسير قوله تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ
مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ) ^(١).

جاء في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلتُ لرسولِ
الله ﷺ : أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَوَّلًا ... ؟
قال : الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ .

قلت : ثُمَّ أَيُّ ... ؟
قال : الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ، وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً. ^(٢)

وفي رواية : قلتُ : ثُمَّ أَيُّ ... ؟
قال : الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى .

قلتُ : كَمْ بَيْنَهُمَا ... ؟
قال : أَرْبَعُونَ عَامًا، ثُمَّ الْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ فَحَيْثُمَا أَدْرَكْتِكَ
الصَّلَاةُ فَصَلِّ. ^(٣)

(١) الآية ٩٦ من سورة آل عمران.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

وهنا يعترضنا إشكالٌ وهو كيف يكونُ بين بناء الكعبة
وبيت المقدس أربعون عاماً، وأن الكعبة بناها إبراهيم عليه السلام ،
وأن بيت المقدس بناه سليمان عليه السلام ، وبينهما أمدٌ كثيرةٌ، قال
أهل التاريخ : بينهما أكثرُ من ألفِ سنةٍ.

قال القرطبي : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما
جددا ما كان أسسه غيرهما، وقد روي أن أول من بنى البيت
الحرام آدم عليه السلام ، فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت
المقدس من بعده بأربعين عاماً.

ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت
بإذن الله، وكل محتمل. والله أعلم.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : أمر الله تعالى الملائكة
ببناء بيت في الأرض، وأن يطوفوا به، وكان هذا قبل خلق
آدم، ثم إن آدم بنى منه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم أتم
إبراهيم عليه السلام بناءه^(١)

وكذلك يقال في بناء البيت المقدس ... والله أعلم.

وروي عن أبي بن كعب قال : أوصى الله تعالى إلى
داود : ابن لي بيتاً، قال : يارب وأين من الأرض ... ؟

(١) تفسير القرطبي.

قال : حيث ترى المَلَكَ شاهراً سيفه .

فراى داودُ مَلَكاً على الصخرة واقفاً وبِيده سيفٌ.^(١)

وقال كعبٌ : مَنْ زار البيتَ المقدَّسَ شوقاً إليه دخل الجنةَ، وَمَنْ صَلَّى فيه ركعتين خرج من ذنوبه كيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَأَعْطِيَ قَلْباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وَمَنْ تَصَدَّقَ فيه بدرهمٍ كان فداءهُ من النار.

وَمَنْ صام فيه يوماً واحداً كُتِبَ له براءتُهُ من النار^(٢).

وقال أبو مالك القرظيُّ في كتابِ اليهودِ الذي لم يَغَيَّرْ:
إِنَّ اللهَ تعالى خلقَ الأرضَ فنظر إليها وقال : أنا واطئُ على بقعتك .

فشمختَ الجبالُ، وتواضعتِ الصخرةُ، فشكر الله لها
وقال: هذا مقامي وموضعُ ميزاني، وجنتي وناري، ومحشرُ خلقي، وأنا دَيَّانُ يومِ الدين^(٣) .

يقولُ ياقوتُ الحمويُّ في وصفِ بيت المقدسٍ وقد
جلس فيه وشاهده عياناً : (وفي المسجدَ أماكنٌ كثيرةٌ،
وأوصافٌ عجيبةٌ لا تتصورُ إلاَّ بالمُشاهدةِ عياناً، وَمِنْ أعظمِ

(١-٢-٣) معجم البلدان.

محاسنه أنه إذا جلس إنسان فيه في أي موضع منه يرى أن ذلك
الموضع هو أحسنُ المواضع وأشرفُها، ولذا ... قيل : إِنَّ اللَّهَ
تعالى نظر إليه بعين الجمال، ونظر إلى المسجد الحرام بعين
الجلال.

وتابع قائلاً :

أهمُّ بقاعِ القدس ما هَبَّتِ الصُّبَا فتلك رباغُ الأنسِ في زمنِ الصُّبَا
ومازلتُ في شوقي إليها مواصلاً سلامي على تلك المعاهدِ والرُّبَا
ولست أدري أن هذين البيتين من شعره أم ذكرهما عن
غيره ...؟

وقال : والحمدُ لله الذي وفقني لزيارته ^(١)

(تحويلُ القبلة)

ومن فضائل بيت المقدس أنه أولى القبلتين وثالثُ
الحرمين الشريفين، وإليه تهوي أفئدةُ المؤمنين من مسلمين
ومسيحيين، وله في قلوبهم مكانة رفيعة، ومنزلة كريمة، ولقد
كان المسلمون يصلون إليه، ويتخذونه قبلة لهم في الصلاة.

^(١) معجم البلدان.

ذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة أراد أن يستألف قلوب اليهود، فتوجه في صلاته إلى قبلتهم وهي بيت المقدس طمعاً في إيمانهم، فلما تبين عنادهم وأيس من إيمانهم أحب أن يتحول إلى الكعبة لتكون قبلته في الصلاة لأنه يحبها ولأنها قبله أبيه إبراهيم عليه السلام، فكان ينظر إلى السماء بعينه، ويتمنى أن يحول إلى الكعبة بقلبه، فأنزل الله ﷻ قوله: (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطرة) ^(١)

ففرح النبي ﷺ بذلك واتخذ الكعبة قبله له في الصلاة.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينما الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. ^(٢)

وعن البراء: أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته

^(١) الآية ١٤٤ من سورة البقرة.

^(٢) رواه الجماعة واللفظ لمالك.

قَبْلَ^(١) الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلاَهَا الْعَصْرَ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِّنْ كَانَ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ : أَشْهَدُ بِاللَّهِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قَبْلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ قَدْ مَاتَ عَلَى الْقَبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قَبْلَ الْبَيْتِ رَجَالٌ قَتَلُوا لَمْ نَذَرْ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)^(٢).

وَقِيلَ : نَزَلَ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْجِدِ بَنِي سُلَيْمَةَ وَهُوَ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ بَعْدَ رَكَعَتَيْنِ مِنْهَا فَتَحَوَّلَ فِي الصَّلَاةِ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْمَسْجِدُ مَسْجِدَ الْقِبْلَتَيْنِ.^(٣)

وَقِيلَ : إِنَّ الَّذِي كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ، وَأَخِيرَ النَّاسِ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ هُوَ عَبَّادُ بْنُ نَهَيْكٍ.
وَقِيلَ : هُوَ عَبَّادُ بْنُ بَشَرَ بْنِ قِيْظِي.

هَذَا ... وَلَسْتُ بِصَدِّدٍ ذَكَرْتُ تَفْصِيلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ لَطَوِيلِ الْحَدِيثِ عَنْهَا، فَكَتَفَيْتُ بِمَا ذَكَرْنَا لِبَيَانِ فَضِيلَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَأَخَذَ فِكْرَةً عَامَةً عَنْهَا.

عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَّاضٍ قَالَ : لَمَّا صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ نَحْوَ الْكَعْبَةِ قَالَتِ الصَّخْرَةُ : إِلَهِي، لَمْ أَزَلْ قِبْلَةً لِّعِبَادِكَ حَتَّى إِذَا بَعَثْتَ خَيْرَ خَلْقِكَ صُرِفَتْ قِبَلَتُهُمْ عَنِّي !!..

(١) قَبْلَ الْبَيْتِ : جِهَةٌ

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَالْآيَةُ ١٤٣ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(٣) تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ.

قال : أبشري فأني واضعٌ عليك عرشي، وحاشرٌ إليك خلقي، وقاضٍ عليك أمري، وناشرٌ منك عبادي .^(١)

أهمية

بيت المقدس

لأهمية بيت المقدس، ولعظيم مكانته في نفوس المسلمين، فلقد اهتموا به وتطلعوا إلى فتحه، وتشوّقت قلوبهم إلى تحريره منذ بدء الفتح الإسلامي، ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنفذ عمرو بن العاص إلى فلسطين، وأمره أن ينزل بيت المقدس ويعمل على فتحه، فامتنع عليه، فقدم إليه أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٦ للهجرة بعد أن افتتح الشام وقنسرين، فطلب أهله من أبي عبيدة الصلح والأمان على مثل ما صالح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولي للعقد لهم، أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .^(٢)

(١) معجم البلدان.

(٢) الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان شمالي حوران قرب مرج الصفر، وهو موضع بين دمشق والجولان.

فكتبَ أبو عُبَيْدَةَ بذلك إلى عمرَ الذي قَدِمَ ونزل
الجابية، ومنها إلى بيت المقدسِ فأنفذَ صلحَهم وكتبَ لهم
كتابَ أمانٍ، وضربَ عليهمَ الجزيةَ، واشترطَ عليهمَ شروطًا
قبلوها.

ولم يزلُ بيتُ المقدسِ بيدَ المسلمينِ يقيمون فيه العدلَ،
ويحكمون بين الناسِ بالسويةِ لا يظلمون أحداً، ولا يُكرِهونه
على تركِ دينِهِ، فشعرَ الناسُ على اختلافِ دياناتِهِم ومعتقداتِهِم
بالأمن والأمانِ، والراحةِ والسلمِ والسلامِ.

هذا ... وكان نصارى الرومِ والأرمنُ وسائرُ الإفرنجِ
يقصدونه للتقديسِ والزيارةِ حسبَ طقوسِهِم الدينيةِ، والصلاةِ
في كنيسَتِهِم المسماةِ (بالقيامةِ) وليس لهم في الأرضِ أجلٌ
وأعظمُ منها.

ثم مَلَكَ بيتَ المقدسِ سُكمانُ بنُ أرثق وأخوه إيلغاري،
والخطبةُ تقامُ فيه لبني العباسِ، فاستضعفَهُم الفاطميون فأرسلوا
إليهم جيشاً لاطاقة لهم به، فتركهُ سَلْمانُ وأخوه وانصرفا عنه
بغيرِ قتالٍ، وذلك في سنةٍ إحدى وتسعين وأربعمائةٍ .

فاستغل الإفرنجُ الصليبيون ضعفَ العربِ المسلمينِ
وتفرقَهُم، فقصدوهم من جهةِ البحرِ، فنزلوا الساحلَ وملكوا

فتح بيت المقدس

أَكثَرُهُ، وَاتْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ يَزْرَعُونَ فِيهَا الْخَوْفَ وَالذَّعْرَ وَالْقَتْلَ
وَالسَّلْبَ وَالْدمَارَ حَتَّى دَخَلُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ تَحْتَ اسْمِ الصَّلِيبِ،
وَكَانُوا قَدْ حَاصَرُوهُ نَيْفًا وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ احْتَلَوْهُ عَنُودًا فِي الْيَوْمِ
الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ،
وَوَضَعُوا سِوْفَهُمْ فِي رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أُسْبُوعًا كَامِلًا، فَالْتَجَأَ
النَّاسُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فَتَبِعُوهُمْ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَا يَزِيدُ عَنْ
سَبْعِينَ أَلْفًا، وَانْتَهَبُوا مَا فِيهِ مِنْ فَرَشٍ وَقَنَادِيلَ وَغَيْرِ ذَلِكَ،
وَجَعَلُوا الصَّخْرَةَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى مَأْوًى لِمَنْ نَازِلِهِمْ، وَلَمْ يَزَلْ
فِي أَيْدِيهِمْ حَتَّى اسْتَخْلَصَهُ مِنْهُمْ الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَلَاحُ الدِّينِ
الْأَيُّوبِيُّ، يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ
وَأَرْبَعِمِائَةٍ، بَعْدَ أَنْ رَزَحَ تَحْتَ الْإِحْتِلَالِ الصَّلِيبِيِّ إِحْدَى
وَتِسْعِينَ سَنَةً كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

بَيْنَ يَدَيِ مَعْرَكَةِ فَتْحِ

بَيْتِ الْمَقْدِسِ

قَبْلَ حَدُوثِ مَعْرَكَةِ حَظِينَ الَّتِي تَقْدُمُ الْحَدِيثُ عَنْهَا
مَفْصَلًا فِي رِسَالَةِ مُسْتَقْلَةٍ، كَانَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ قَصَدَ
مَدِينَةَ أَمْدٍ فَحَاصَرَهَا حِصَارًا مُحْكَمًا طَالَتْ مَدَّتُهُ، ثُمَّ تَسَلَّمَهَا

صلحاً من يد صاحبيها ابن بيسان، فلما دخلها وجد فيها من الأموال والذخائر والأسلحة والكتب ما أدهشه وأثار إعجابه، فقد وجد فيها برجاً مملوءاً بنصول السهام، ورجاً آخر فيه مائة ألف شمعة، ووجد فيها مكتبة عظيمة جداً تحتوي على مليون وأربعين ألف مجلد وهبها كلها للقاضي الفاضل.

ثم انتقل منها إلى حلب فحاصرها، وقاتله أهلها قتالاً شديداً، ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً، قتل من جنوده عددٌ منهم أخوه تاجُ الملوك بوري بن أيوب الذي جرح في هذه المعركة جرحاً بليغاً مات على أثره بعد أيام، وكان أصغر إخوته، ثم تمَّ الصلحُ بينه وبين حكامها، فدخل مدينة حلب وصعد قلعتها المشهورة وهو يردد قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(١). ولما دخل حجرة الملك تلا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْثَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾^(٢)

(١) الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأحزاب.

ولما دخل باب إبراهيم عليه السلام صلى فيه ركعتين وأطال
 السجود فيهما، ثم دعا الله تعالى وتضرع إليه بصدق وإخلاص
 أن يُلهمهُ الصبرَ، ويَهَبهُ النصرَ، وأخذ الناسُ يقصدونه من كل
 مكان ويمدحونه بخطيبهم وأشعارهم، فخلع عليهم الهدايا،
 وأغدق لهم العطاء، وأحسن إلى الناس جميعاً، وخصَّ منهم
 المساكينَ والفقراءَ.

ولقد وقعت القلعة منه بموقعٍ عظيمٍ، وسُرَّ بفتحها
 سروراً شديداً، وقال وهو يعبرُ عن فرحته بفتحها: ماسُرَرْتُ
 بفتح قلعةٍ أعظمَ سروراً من فتح مدينة حلب، ذلك أنه بُشِّرَ
 بفتح بيت المقدس حين فتح مدينة حلب.

ذلك أن الفقيه العالم مجد الدين بن جهل الشافعي رأى
 في بعض التفاسير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُغْلَبَاتِ الرُّومِ﴾
 في أدنى الأرض وهو من بعد غلبهم سيغلبون في بضع
 سنين^(١) رأى البشارة بفتح بيت المقدس في سنة ثلاث
 وثمانين وخمسمائة، واستدل على ذلك بأشياء، فكتب ذلك في
 ورقة وأعطاهما للفقيه عيسى الهكاري ليبشر بها السلطان صلاح

(١) الآيات ١-٤ من سورة الروم.

الدين، فلم يجرؤ على ذلك خوفاً من الخطأ أو عدم المطابقة،
فأخبر به القاضي محيي الدين بن الزكي الذي نظم معنى الرؤيا
في قصيدة يقول فيها :

وفتحكم حلبَ الشهباءَ في صفرٍ قضى لكم بالفتحِ القدسِ في رجبٍ

ويروى :

وفتحه حلباً بالسيفِ في صفرٍ مبشراً بفتحِ القدسِ في رجبٍ

ثم أعطى القصيدةَ للسلطانِ صلاح الدين الذي فرح بها
فرحاً شديداً، واستبشر بها خيراً، وصارت له حافزاً لفتح بيت
المقدس، وتاقت نفسه إلى ذلك. وأصبح فتح بيت المقدس من
أهم الأمور التي أشغلتُه وأخذت قسطاً كبيراً من وقته وتفكيره،
وأضحت هاجسة بالليل والنهار.

الاستعداد للفتح

ثم رحل صلاح الدين من حلب بعد أن أشغله نبأ رؤيا
فتح بيت المقدس، واستخلف عليها ولده الظاهر غازي، وولى
قضاءها لابن الزكي الذي نظم القصيدة المذكورة، ولكن ابن
الزكي لم يرض بالقضاء بديلاً عن الجهاد، فاستتاب عنه نائباً

فتح بيت المقدس

فيها ومضى مع السلطان للجهاد في سبيل الله، فدخلوا دمشق، ثم خرجوا منها قاصدين بيت المقدس لقتال الصليبيين، فانتهوا إلى بيسان^(١) فقاتلوا من فيها من الصليبيين، فقتلوا وأسروا وغنموا، ثم خرجوا منها منتصرين مظفرين يقودون الأسرى، ويحملون الغنائم، حتى انتهوا إلى عين^(٢) جالوت لجس نبض العدو من جهة، ولاستعراض العضلات من جهة أخرى، فنزلوا عليها، وبدأ صلاح الدين يث جنوده هنا وهناك، ويرسل طلائعته لتغير على معسكرات العدو فتقتل وتأسر وتندر بحرب شديدة وطاحنة تسحقهم سحقاً وتطردهم من بيت المقدس ومن جميع بلدان المسلمين.

وكان فيما أرسل سرية هائلة عليها فارس كبير يقال له (بردويل) فالتقوا معهم، ودارت بين الفريقين معركة قوية أسفرت عن مقتل عدد كبير من الفرنج وأسرى مائة أسير في البلدان.

(١) بيسان : مدينة بالغور الشامي بين حوران وفلسطين، ويقال : هي لسان الأرض، وجاء ذكرها في حديث الجساسة الذي رواه مسلم في صحيحه.

(٢) عين جالوت : بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استقلها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩. انظر معجم البلدان.

الوقت الذي لم يفقد فيه المسلمون سوى شخصٍ واحدٍ،
ورجعوا إلى معسكرهم آخرَ النهارِ يقودون الأسرى.

ثم بلغ صلاح الدين أن الفرنج قد اجتمعوا لقتاله،
وأعدوا له جيشاً كبيراً، فاستعدَّ للقائهم، ومكث ينتظرُ قدومهم
على أحرَّ من الجمر، ثم التقى معهم فقتل منهم عدداً كبيراً،
وجرحَ مثلهم وأسَرَّ آخرين، فرجعوا على أعقابهم ناكسين،
وهربوا أمامه خائفين، ولازال يتبعهم بجيشه يقتل منهم ويأسرُ
حتى دخلوا بلادهم، فرجع عنهم.

وكتب القاضي الفاضلُ إلى الخليفة يخبرُه بالظفرِ بالعدو،
وبما مَنَّ الله على المسلمين من تأييد ونصر، وكان لا يفعلُ
شيئاً، ولا يُقدِّم عليه إلا إذا أطلع عليه الخليفة أديباً معه، واحتراماً
له واحتشاماً.

هدمُ حصن الأحزان^(١)

ويقالُ له : بيتُ الأحزان، وهو جمعُ حزن، سُمِّيَ بذلك
لأنهم كانوا يزعمون أنه كان مسكنَ يعقوبَ عليه السلام، أيامَ فراقه

^(١) حصن الأحزان : جمع حزن ضد الفرح : بلد بين دمشق والساحل.

فتح بيت المقدس

ليوسفَ الطيّبِ ، وكان الفرنجُ بنوهُ، وأشادوا عليه حصناً حصيناً، وحفروا فيه بئراً، وجعلوه لهم مرصداً يرصدون منه تحركات المسلمين، فلما علم به السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى توجهَ إليه فحاصره وصدَّعه من جميع جهاته، ثم أحرقه وألقى فيه النيرانَ فاشتعلتْ بجميع جوانبه، ثم أمر بهدمه من أساسه، وقتل مَنْ فيه، وغنمَ منه مائة ألف قطعة من السلاح، ولم يبقَ من أمرائه سوى عشرة بسبب ما أصابهم من الحرِّ والوباءِ والمرضِ في مدة الحصارِ التي دامت أربعة عشر يوماً، وزارَ مشهدَ يعقوبَ الطيّبِ ، ثم عاد إلى دمشق مكللاً بالنصر والظفر.

ولقد خلَّدَ بعضهم هذه الحادثةَ بقوله :

هلاكُ الفرنجِ أتى عاجلاً وقد آنَ تكسُّرُ صلابتها
ولو لم يكن قد دنا حُفُّها لما عمرت بيتَ أحزانها

وقال آخرُ يمدحُ صلاحَ الدينِ ويهزأُ بالفرنجِ وطيشهم

وعصبيتهم :

بجدةَ أعطافِ القنا قد تعطَّفت وطرفُ الأعادي دون مجدك يطفئ
شهابُ هدى في ظلمةِ الليلِ ثاقبٌ وسيفٌ إذا ما هزَّه اللهُ مُرَقِّفٌ
وقفتَ على حصنِ المخاضِ وإنه لموقفٌ حقٌّ لا يوازيه موقفٌ
فلم يمتدَّ وجهُ الأرضِ بل حال دونه رجالٌ كأسادِ الثرى وهي ترجلُ
وما رجعتْ أعلاشك البيضُ ساعةً إلى أنْ غدتْ أكباؤها السودُ ترجفُ

كنائسُ أعيادِ صليِّبٍ وبيعةٍ وشاد به دينٌ حنيفٌ ومصحفٌ^(١)
صليِّبٌ وعبادةُ الصليِّبِ ومنزلٌ لسوالٍ قد غافرتُهُ وهو صفصفٌ
أُتسكنُ أو طانَ النُبَيْنُ عصبةً كمينٌ لدى أيمانها وهي تحلفُ
نصحتكم والنصحُ في الدينِ واجبٌ فروا بيتَ يعقوبَ فقد جاء يوسفُ

يريد بيوسفَ صلاحَ الدينِ رحمه الله تعالى.

ما بعد وقعة حطين

بعد فراغ صلاح الدين من معركة حطين، ونصره
العظيم على الفرنج وقتل قادتهم وأمرائهم، وأسر ملوكهم،
وكسر شوكتهم، والقضاء على غطرستهم، توجه إلى قلعة
طبرية^(٢) ففتحها، ويزوى أنه هدمها، فأغضب بذلك الفرنج
وأثار حنقهم، فلم يحفل بهم صلاح الدين بل إنه مسرورٌ جداً
حين يغضبهم.

(١) بيعة : البيعة دار عبادة لليهود، وهي بمعنى كنيسة.

(٢) طبرية : معنى طَبْر في اللغة : قفز واختبأ، وهي بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وتقع في طرف جبل، وجبل الطور مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس، وبينها وبين عكا مسيرة يومين.

الفتحها شرحبيل بن حسنة سنة ثلاث عشرة، ثم هجم عليها الروم فمسير إليهم أبو غبيلة عمرو بن العاص في أربعة آلاف فطردهم منها وفتحها.

فتح بيت المقدس

ثم سار إلى حطينَ فزار قبرَ النبي شعيب عليه السلام ، لأنه يروى أن قبره هناك ثم مضى إلى إقليمِ الأردنِ ففتحها كلها، وكانت قرى كثيرة، كباراً وصغاراً.

ثم مضى إلى عكا فافتتحها صلحاً، وأخذ ما كان فيها من حواصلِ الملوكِ وأموالهم وذخائرهم وغير ذلك، واستنقذ مَنْ كان فيها من أسرى المسلمين، وكانوا أربعة آلاف أسير، وأمر بإقامة صلاة الجمعة فيها، وكانت أولَ جمعة أقيمتُ بالساحلِ بعد احتلالِ الفرنج.

ثم سارَ منها إلى صيدا^(١) وبيروت^(٢) وجميع المدن الساحلية فأخذها مدينةً مدينةً ثم رجع إلى غزة^(٣) وعسقلان^(٤) ونابلس^(٥) وبيسانَ وأراضي الغورِ فافتتحها كلها، وجعلَ على نابلسَ ابنَ أخته حسامَ الدينِ عمرَ بنَ محمد بنِ لاشين، فكان جملةُ المدن والقرى التي افتتحها خمسين مدينةً وقريةً، وغنم منها أشياء كثيرة، من مالٍ وسلاحٍ وعتادٍ.

(١) صيدا : مدينة على ساحل بحر الشام، شرقي صور بينهما ستة فراسخ.

(٢) بيروت : مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ.

(٣) غزة : مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان.

(٤) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها : عروس الشام، وكذلك يقال للمعشق أيضاً.

(٥) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ.

فتح بيت المقدس

ثم أمر جنوده أن يستريحوا في هذه الأماكن، وأن ترتع
خيولهم استعداداً لفتح بيت المقدس بعد أن فتح الله عليه هذه
البلاد، ومكنه منها.

وانتشر الخبر بين الناس أن السلطان صلاح الدين عازم
على فتح بيت المقدس فقصده العلماء والصالحون وأصحاب
النخوة والشهامة والغيرة الدينية والوطنية متطوعين للجهاد في
سبيل الله تعالى، وجاءه أخوه العادل بعد وقعة حطين وفتح
عكا الذي فتح بنفسه حصوناً كثيرة.

فاجتمع إليه من الجيوش والمتطوعين عدد كبير جداً،
فأصبح على استعداد كامل لخوض معركة المصير والشرف،
وامتدحه الخطباء والشعراء، وأثنوا عليه خيراً.

وكتب إليه القاضي الفاضل وهو مقيم بدمشق لمرض
أصابه : (ليهن المولى أن الله أقام به الدين، وكتب المملوك^(١)
هذه الخدمة والرؤوس لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح

(١) يريد بالمملوك نفسه تأدياً مع السلطان صلاح الدين.

من حدودها، وكلما ذكر المملوك أن البيع^(١) تعود مساجد،
 والمكان الذي كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة يقال فيه اليوم
 إنه الواحد، جدد لله شكراً تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض
 من جفنه سروراً بتوحيد الله تعالى الملك الحق المبين، وأن يقال
 محمد رسول الله الصادق الأمين، وجزى الله يوسف خيراً عن
 إخراجه من سجنه، والممالك ينتظرون المولى وكل من أراد
 أن يدخل الحمام بدمشق قد عزم على دخول حمام طبرية.
 تلك المكارم لأقربان من لين ذلك السيف لاسيف ابن ذي يزن
 ثم قال : وللأسنة بعد هذا الفتح تسييح طويل، وقول جميل
 جليل^(٢).

المسير إلى بيت المقدس

افتتح صلاح الدين رحمه الله تعالى المدن والقرى المحيطة
 ببيت المقدس، ودان لها أهلها، واطمأن إلى تطهير ما حولها،
 واجتمع إليه عدد كبير من الجيش والمتطوعين الذين قدموا إليه
 باختيارهم ومحض إرادتهم للدفاع عن الأرض المقدسة وتحريرها

(١) البيع : جمع بعة، وهي كناس اليهود.

(٢) البداية والنهاية

من براثن الفرنج الصليبيين الذين عاثوا فيها الفساد، وحولوا المسجد الأقصى إلى اصطبلات ربطوا فيها حيولهم، وإلى خمارات ودور للهو والعبث، شربوا فيها الخمر، ومارسوا أبشع أنواع القذارة والأمور اللاأخلاقية. وقد عاهد هؤلاء المتطوعون صلاح الدين رحمه الله تعالى على الصبر والثبات في وجه العدو مهما كان الثمن غالياً حتى يحققوا النصر، ويطردوه من بيت المقدس، ويطهروه من فسادهم وشرورهم.

لقد مضى صلاح الدين بهؤلاء المجاهدين المخلصين نحو بيت المقدس وليس أمامه سوى هدف واحد يسعى جاهداً لتحقيقه مهما يكن بعد الشقّة وفداحة المشقّة، وقد كرّس جهده وعقله وفكره، وجميع ما يملك من وقت ومال وجيش وعتاد لإحراز النصر، وتحقيق الهدف ابتغاءً لرضوان الله تعالى ونيل رحمته وجنته .

وفي اليوم الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، نزل بجيشه غربي بيت المقدس، فوجد البلد قد حصّنت تحصيناً محكماً، وزرّع أفراد الجيش والحراس حولها زرعاً شديداً، وكانوا يومئذ ستين ألف مقاتل شكلوا طوقاً قوياً

حامياً لا يستطيع جيشٌ مهما بلغ من القوة والاستعداد أن
يخترقهُ.

وكان صاحبُ القلص، رجلاً قوياً، شديدَ الدهاءِ
والمراسِ يقالُ له (بالبان) ومعه عددٌ كبيرٌ من الذين هربوا يومَ
وقعة حطين ونجوا بحياتهم من القتلِ والأسْرِ، ومعظمهم من
الداوية^(١) والاستشارية فلجؤوا إلى القلصِ واحتَموا فيها عند
البيان المذكورِ.

فلما رأى صلاحُ الدينَ رحمهُ الله تعالى هذا الحشدَ
الهائلَ والحراسةَ المحكَّمةَ الشديدةَ أقام مكانهُ ينظرُ بأمرٍ هؤلاءِ،
ويرسمُ خطةً محكمةً لكسرِ ذلك الطوقِ واختراقِ ذلك الحشدِ
الهائلِ من الجنودِ والحراسِ، ولم يُثنِ ذلك من عزيمته، ولم يُثبِّطْ
ذلك من همته، ولم يتردَّدْ لحظةً، ولم يتراجعْ خطوةً واحدةً عن
الهدفِ السامي والقصدِ النبيلِ الذي جاء من أجله وما هو إلاَّ
إحدىِ الحُسنيين : إما الشهادةُ أو النصرُ، ولا محيدَ عن
إحداهما، وهما غايةُ كلِّ مسلمٍ وهدفُهُ ومُبتغاهُ.

(١) الداوية : هم الفرسان المعروفون باسم فرسان المعبد.

بدء القتال

أقامَ السلطانُ صلاحُ الدينَ رحمه الله تعالى مكانَهُ خمسةَ أيامٍ يرسمُ خطةً للقتالِ، ويذكرُ في نفوسِ جنودِهِ الصبرَ والثباتَ والإيمانَ، وحبَّ الجهادِ في سبيلِ الله، ووزَّعَهُم إلى فرقٍ وطوائفَ، وجعلَ على كلِّ طائفةٍ منهم أميراً شجاعاً ذكياً، وأوكلَ إلى كلِّ فرقةٍ ناحيةً من السورِ لمراقبةِ أبراجِهِ، وما يصدرُ عن جنودِ الفرنجِ من تحركاتٍ.

ثم تحولَ صلاحُ الدينَ رحمه الله تعالى إلى جهةِ الشامِ ليكونَ المجالُ معه أوسعَ، وميدانُ المعركةِ أفسحَ للتحركِ والنزالِ، ولوصولِ الإمدادِ إليه إن احتاجَ الأمرُ، وهو يشجِّعُ جنودَهُ، ويُلهبُ حماسَهُم، ويتلو عليهم آياتِ الجهادِ، ويذكرُهم بثوابِ القتالِ في سبيلِ الله، وما أعدَّ للمجاهدين والشهداءِ من أجرٍ جزيلٍ وثوابٍ عظيمٍ.

ثم أصدرَ أوامرهُ بالهجومِ على العدوِّ واقتحامِ الأسوارِ، ودكِّ الحصونِ والأبراجِ، فكان القتالُ حامياً، والمعركةُ ضاريةً أظهرَ فيها المسلمونَ شجاعةً فائقةً، وبسالةً عظيمةً، وثبتوا ثباتاً مشرفاً، وصبروا صبراً جميلاً وقد صمموا على إحرازِ النصرِ مهما كانتِ النتائجُ.

هذا ... ولقد قاتل الصليبيون قتالاً شديداً، ووقفوا في وجه المسلمين دفاعاً عن أسوار مدينتهم دفاعاً مستميتاً، وبذلوا كل ما يملكون لصد هجمات المسلمين نصرَةً لدينهم، وحماية لقيامتهم^(١)، فاستشهد في هذا القتال عددٌ من قادة المسلمين وأمرائهم، الأمر الذي أغضبهم وأثار حنقهم، وإذا بهم يسمعون صوت صلاح الدين يأمرهم بالتحلي بالصبر والإيمان والإكثار من قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومن قول : حسي الله ونعم الوكيل.

فاستجابوا لندائِهِ، واجتهدوا في القتال، وضاعفوا جهودَهُم، ونصبوا المجانيقَ على أسوار البلد، فتسلقوا عليها، ورئتْ أبصارُهُم إلى بيت المقدس، والعيون تنظرُ إلى الصليبان الكبيرة المنصوبة في المحافل العامة وعلى الجدران، وإذا صليبٌ كبيرٌ منصوبٌ فوق قبة الصخرة المعظمة، فازداد المسلمون حنقاً وتصميماً على متابعة القتال لإسقاط تلك الصليبان، وتطهير قبة الصخرة منها، وإزالة جميع مظاهر الكفر والشرك الوثنية من جميع شوارع القدس وساحاتها ومنازلها، فكان يوماً عسيراً

(١) القيامة : كنيسة ليس لهم في الأرض أجل وأعظم منها.

على الكافرين غيرَ يسيرٍ، ثم توجَّهَ صلاحُ الدينِ ببعضِ الفرسانِ الميامينِ إلى الزاوية الشمالية الشرقية من السورِ فجعلوا يضربونها حتى تصدَّعتْ، ثم أشعلوا فيها النيرانَ فسقط ذلك الجانبُ كلُّه، وخرَّ البرجُ برمَّته، وأصبح ذلك الجانبُ خالياً من السورِ ومكشوفاً تماماً للمسلمين الذين أخذوا ينظرون إليه بشوقٍ وشغفٍ لاقتحامه لدخولِ المدينة.

استسلامُ الفرنجِ

لم يكِدِ الفرنجُ يشاهدون السورَ يتصدَّعُ، ثم يتهاوى ويتساقطُ حتى أُسْقِطَ في أيديهم، وصُدِّموا بصورةٍ عنيفةٍ، وأيقنوا بالهزيمة والخسران، ورأوا أنهم إن لم يستسلموا هلكوا جميعاً، وفقدوا هيبتهم وكرامتهم، فتوجَّهَ أمراؤهم إلى السلطان المنتصر صلاح الدين، وأماراتُ الذلِّ والصغارِ والهزيمة باديةً على وجوههم، ثم وقفوا أمامه أذلاءً صاغرين وقد كُسِرتْ شوكتهم، وأعلنوا هزيمتهم، وأخذوا يرجونه أن يصالحهم ويُعطِيَهُم الأمانَ.

فلم يستجب لهم وقال : لا أفتحها إلا عنوةً، كما
افتتحتموها أنتم عنوةً، ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته
كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين.

ذلك أنهم حيث دخلوها وضعوا سيوفهم في رقاب
المسلمين أسبوعاً كاملاً، ولم يرفعوها حتى قتلوا منهم أكثر من
سبعين ألفاً بكل قسوة ووحشية، ولم يرعوا في الله إلا ولا ذمة،
فألجأوا من جنس العمل، وكما تدين تدان.

﴿ذلك بما قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ﴾^(١) .

فطلب بالبان حاكم بيت المقدس الأمان ليجمع
بصلاح الدين، فأمنه على نفسه، فلما وقف أمامه ومثل بين
يديه، كما يمثل الأجير بين يدي سيده، ووقف ذليلاً حقيراً
مهاناً، وأخذ يرجوه ويتوسل إليه بكل ما أمكنه من عبارات
التوسل والرجاء، وصلاح الدين لابت مكانه ينظر إليه في عزة
وإباء وشموخ نظر المستصغر المستهين دون أن يحفل به أو
يكثر لأمريه، ذلك أنه هو المنتصر، وهو القوي، والمنتصر هو

(١) الآية ٥١ من سورة الأنفال.

الذي يفرضُ شروطَهُ، والقويُّ هو الذي يعلِي على خصمه ما يريدُ، وصلاحُ الدينِ الرجلُ المؤمنُ القويُّ يتمثلُ قولُ الحقِّ تبارك وتعالى : (ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنتمُ الأعْلَوْنَ إِنْ كنتمُ مؤمنينَ).^(١)

(فلا تَهِنُوا وتدعُوا إلى السَّلَمِ وأنتمُ الأعْلَوْنَ واللهُ معكم ولن يتركم أعمالكم)^(٢) .

ولن يتركم أعمالكم : أي لن يُنْقِصَكم من ثوابِ أعمالكم شيئاً، فأنتمُ الأعْلَوْنَ قوَّةً وإيماناً واعتقاداً وارتباطاً بالله، وصلةً بالعلي الأعلى.

وأنتمُ الأعْلَوْنَ خُلُقاً وسلوكاً ومكاناً ونصرةً، لأنَّ معكم القوَّةُ الكبرى وهو اللهُ ﷻ ونصرُهُ وتأيدُهُ، ومَنْ كان كذلك كان قوياً لا يَضْعُفُ، وشجاعاً لا يَجْبُنُ، وعزيراً لا يذلُّ، وكذلك كان صلاحُ الدينِ في موقفهِ مع بالبان قوياً عزيزاً شامخاً مظفراً معترأً بالله، مستصغراً لخصمه وعدوه.

(١) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٣٥ من سورة محمد ﷺ .

الصلح

وقفَ بالبانُ وأمرأُ الفرنج وقادَهُم يرجون صلاحَ الدين
أن يعفوَ عنهم ويعطيَهُم الأمان وله أن يفرضَ شروطَهُ كما
يريدُ، فلم يكثرُ بهم، فقالوا وقد يئسوا من الأمان: إن لم
تعطِنا الأمان رجعنا فقتلنا كلَّ أسيرٍ منكم بأيدينا - وكانوا
قريباً من أربعة آلاف أسيرٍ - وقتلنا ذرارينا وأولادنا ونساءنا،
وخرَّبنا الدورَ والأماكنَ الحسنةَ وهدمناها، وأحرقنا المتاعَ،
وأُتلفنا ما بأيدينا من الأموال، وهدمنا قبةَ الصخرة، وحرقنا ما
نقدرُ عليه، ولا نتركُ شيئاً نقدرُ على إتلافِهِ إلا أُتلفناه، وبعد
ذلك نخرجُ إليكم فنقاتلكم حتى الموتِ ولا خيرَ في حياتنا بعد
ذلك، فلا يُقتلُ واحدٌ منا حتى يقتلَ أعداداً منكم، فماذا ترجي
بعد هذا من الخيرِ !!...؟؟

فأجابهم صلاحُ الدين للصلحِ وأعطاهمُ الأمان ليس عن
ضعفٍ وهوانٍ، ولا عن تردّدٍ وخذلانٍ، بل عن قوةٍ وتفوقٍ
واستعلاءٍ، فهو القويُّ والمتصرُّ، والمؤمنُ الذي رجع إلى قول
الحقِّ تبارك وتعالى الذي أمرَ نبيّه محمداً ﷺ أن ينجحَ إلى السلام

إذا جَنَحَ إليه العدو ومالَ إليه وطلَّبه، وكذلك الأمرُ إلى جميع
وُلاةِ أمورِ المسلمين حين يرونَ رغبةَ العدوِّ في السِّلْمِ والصلحِ
والمسالمةِ، ودلَّتْ ظواهرُهُم وأفعالُهُم في الرغبةِ الأكيدةِ في السلمِ
حقاً، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وإن جنحوا للسِّلْمِ فاجنح لها
وتوكلْ على الله إنه هو السميعُ العليمُ﴾^(١).

من هذا المنطلقِ الإسلاميّ، وبموجب النصِّ القرآنيّ
استجابَ صلاحُ الدينِ رحمهُ الله تعالى لرغبتِهِم في الصلحِ،
ومالَ إلى السلامِ والمسالمةِ، فكان سلامُهُ معهم سلامَ الأبطالِ،
وصلحُهُ صلحَ الشجعانِ الأقوياءِ المتفوقينَ الذين يفرضونَ
شروطَهُم بكلِّ ثقةٍ وقوةٍ، ويسالمونَ عدوَّهُم ويوادعونهُ وهو في
حالةٍ ضعفٍ وتقهقرٍ وخذلانٍ كالمرضى الذي يلفظُ أنفاسَهُ
الأخيرةَ، أو الغريقُ الذي يتشبَّثُ بشعرةٍ يرجو أن تنقذَهُ من
الغرقِ وتمنحَهُ الحياةَ، تماماً كما حصلَ لبلبانٍ وحملةِ الصليبِ،
فلاخَرَجَ إذن على صلاحِ الدينِ، ولاغضاضةٍ عليه حين
يستجيبُ لهم في الصلحِ، ويعطيهِم الأمانَ ... !! بل إن طبيعةَ
الدينِ الذي يؤمنُ به ويخضعُ لتعاليمِهِ هي التي تفرضُ عليه
وتأمُرُهُ أن يميلَ إلى الصلحِ، لأنها قائمةٌ على أساسِ من العفوِ
والتسامحِ والإنسانيةِ، قال الله تعالى : ﴿خذِ الْعَفْوَ وأمرُ

(١) الآية ٦١ من سورة الأنفال.

بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ^(١) ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ^(٢) ﴿وأن تغفوا أقرب للتقوى﴾ ^(٣)

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ ^(٤)

(وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولن صيرتم لهُو خيراً للصابرين) ^(٥)

﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولَمَن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيلُ على الذين يظلمُونَ الناسَ ويبغون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليمٌ. وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ^(٦) ﷻ .

^(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

^(٢) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

^(٣) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة.

^(٤) الآية ٩٠ من سورة النحل .

^(٥) الآية ١٢٦ من سورة النحل .

^(٦) الآيات ٤٠-٤٣ من سورة الشورى .

هذه بعضُ تعاليمِ الإسلامِ الساميةِ، والمبادئِ العظيمةِ، والأخلاقِ النبيلةِ، والأهدافِ الإنسانيةِ القائمةُ على العدلِ والعفوِ والرحمةِ والتسامحِ وهي التي ضمنتُ للإسلامِ البقاءَ والاستمرارَ رغمَ المؤامراتِ الكثيرةِ، والضرباتِ المتتاليةِ التي وُجِّهَتْ إليه عبرَ القرونِ الماضيةِ.

وبنظرةِ تأمليةٍ واسعةٍ لهذه الوصيةِ الجامعةِ التي أوصى بها نبيُّ الإسلامِ محمدٌ ﷺ أمراءَه وقوَّادَ جيوشِه وسراياه حينَ يرسلُهُم إلى الجهادِ يتبيَّنُ لنا مدى التزامِ المسلمين بها ظاهراً وباطناً، والعملِ بمقتضاها وقالبا، الأمرُ الذي جعلَ الناسَ يؤمنونَ به ويُقبلونَ عليه أفواجا، ويدخلون فيه عن قناعةٍ وطوعيةٍ يقولُ عليه الصلاة والسلامُ : (اغزوا باسمِ الله، وفي سبيلِ الله ، قاتلوا مَنْ كَفَرَ بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا، ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً) ... ومن خطبةِ لأبي بكرٍ رضي الله عنه حينَ أرسلَ جيشَه إلى الشام حيث قال لهم : لا تحنّوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأةً، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلّا لمأكلةٍ).

وفي ذلك كانوا المثل الأعلى في العدل والصدق والإحسان والتسامح والحلم والوفاء بالعهد، وعدم الظلم والغدر والعدوان، عملاً بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾^(١).

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ﴾^(٢).

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وأتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾^(٣) .

والإسلام حين يقرر هذه الأمور العظيمة، ويضع هذه المبادئ السامية لا يضعها لتبقى سطوراً في الكتب أو كلمات يرددها الخطباء، ويتغنون بها على المنابر، ويحلم بها المصلحون وهداة الإنسانية، إنما يضعها لتكون الواقع العملي للناس، ولتجلى في حياة المسلمين وسلوكهم، وتعاملهم مع الأعداء،

(١) الآيات من سورة البقرة.

(٢) الآيتان ١٩١ و ١٩٢ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

ولقد تجسّد ذلك في حياة النبي ﷺ وخلفائه الأربعة ؓ ، وفي فترات متقطعة في العهود التالية.

شروط الصلح

انطلاقاً من سماحة الإسلام وعَفْوِهِ وعدلِهِ، ومن الرحمة الواسعة التي تجلّت في شخصية صلاح الدين السمحة وافق على الصلح، ومال إلى السلم واشترط عليهم الشروط التالية :

أن يؤدي كلّ رجل منهم عن نفسه عشرةً دينارين، وعن المرأة خمسةً دينارين، وعن كلّ صغير وصغيرة دينارين، ومن عجز عن دفع ذلك كان أسيراً للمسلمين. وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين.

وأن يتحوّل الفرنج من القدس إلى مدينة صور.

ومن لم يلتزم هذه الشروط ويؤدي ما عليه خلال أربعين يوماً فهو أسير.

فكان جملة من عجز عن أداء ذلك ستة عشر ألفاً من رجال ونساء وولدان أصبحوا أسرى عند المسلمين بموجب الشروط السابقة.

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب وقبل صلاة الجمعة، وفي ذكرى الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى دخل المسلمون مدينة بيت المقدس تحت قيادة السلطان صلاح الدين وسط فرحة عامرة، وتكبيرات عالية تجاوزت أصدائها في جنبات المدينة وما حولها، ابتهاجاً بالنصر والتحرير، وطرد الغزاة المعتدين، وتطهر بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة من مظاهر الشرك والوثنية، وآثار العدوان الظالم الغاشم.

لقد كان يوماً عظيماً ومشهوداً، ونصراً مؤزرًا، وفتحاً مبیناً يوم دخل الفاتحون المسلمون بيت المقدس تعلوهم المهابة والجلال، وتحوطهم الأبهة والجمال، وتحفهم الرحمة الإلهية، وتحفظهم ملائكة السماء العلوية، وكأن هذا الفتح المبین يشبه فتح مكة يوم دخلها رسول الله ﷺ بجلاله وجماله وهيئته وتواضعه وهو يتلو قول الحق تبارك وتعالى (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً).

ثم أمر بإزالة الأصنام ومظاهر الشرك من البيت العتيق حتى يؤدي الرسالة الإنسانية العظيمة التي من أجلها رفع

إبراهيم واسماعيل قواعده، وهي عبادة الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

تطهير المسجد الأقصى

وقام المسلمون يداً واحدةً بدافع الغيرة على المسجد الأقصى، وتطهيره من أرجاس الفرنج، فأخرجوا ما كان فيه من صُلبان ورُهبان وخنازير وخمور وخربوا دورَ الداوية،^(١) وكانوا قد بنوها غربيَّ المحراب الكبير، وأتخذوا المحرابَ حماراً، فنظفوه وطهروه من جميع ذلك وأعادوه إلى ما كان عليه قبل أن تدنسه يد الكفر والاحتلال.

وغسلوا الصخرة بالماء الطاهر، وأتبعوه بماء الورد والمسك والطيب الفاخر، حتى بدت آية في الجمال، وأبرزت للناظرين، بعد أن كانت مستورةً مخبوءةً عن الزائرين، وأنزل الصليب عن قبتها، وعادت إلى حرمتها وكأنها لم تُصَبْ بأذى، وقد كان الفرنج قد أخذوا منها قطعاً نادرة، ولوحات ذهبية فاخرة فباعوها وتعذرت بإعادتها.

(١) الداوية : هم فرسان المعبد.

وأمر السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بإزالة ما حولها من الصور والتماثيل والمنكرات، وأمر بتطهيرها من كل ما يعيها أو يمس بمكانتها وقديستها، وضرب على ما حولها من نوافذ أبواب من حديد، ورتب لها إماماً دائماً ووقف عليه رزقاً جيداً، وكذلك عمل للمسجد الأقصى، وبني موضع الكنيسة المقامة على قبر حنة أم مريم مدرسة يُقال لها الصلاحية والناصرية. وعين عليها رواتب ضخمة لتلاوة القرآن في أنحاء المسجد الأقصى وقبة الصخرة على أن لاتنقطع التلاوة فيهما إلا في وقت أداء الصلاة.

ولقد تنافس بنو أيوب والأمراء والقادة والأثرياء في تقلص كل ما فيه خير وتقرب من الله ﷻ ، وخدمات جليلة للمسجد الأقصى والصخرة والفقراء وعزم صلاح الدين على هدم القيامة وجعلها دكا لتحسم مادة الفرنج من بيت المقدس نهائياً وإلى الأبد، ف قيل له : إن النصارى لا يتركون الحج إلى هذه البقعة ولو كانت قاعاً صفصفاً، ولقد فتح هذا البلد قبلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وترك هذه الكنيسة بأيديهم، ولك في ذلك أسوة حسنة، فتخلّى عن فكرة هدمها وتركها

كما هي تأسياً بعمره ﷺ ، وترك لها أربعة من النصارى يخدمونها ، وأمر بهدم المقابر التي كانت عند باب الرحمة ، فأزالها ، وعفا آثارها ، وهدم ما كان هناك من القباب .

وأمر بإطلاق سراح أسرى المسلمين الذين كانوا في سجون الفرنج بالقدس ، وأحسن إليهم ، وأكرمهم ، وأطلق لهم إعطاءات سنية ، وردّهم إلى أهلهم مُحملين بالعطايا والكساء والاحترام والتكريم .

وكما أحسن إلى أسرى المسلمين ، أحسن أيضاً إلى الفرنج ، فأطلق سراح الرجال والنساء والصبيان ، وخلع عليهم من العطايا والأموال ما يجلب عن الوصف ، خاصة لبنات الملوك والأمراء ، ووقعت المسامحة منه لكثير منهم ، وشفع في أناس كثيرين ، فعفا عنهم ، وأحسن إليهم ، ذلك أنه كان رحمه الله تعالى حليماً كريماً ، متسامحاً مقداماً ، شجاعاً نبيلاً رحيماً ، الأمر الذي بهر أسرى الفرنج ، وأثار إعجابهم ، وجعلهم يقدمون إليه ، ويقبلون يديه ، حتى إن منهم من دخل الإسلام حيث رأى منه المعاملة الحسنة ، والصفح الجميل ، والعفو الكريم .

وكأني حين أكتبُ هذه الكلمات، وأصورُ هذا المشهدَ
 الفدُّ أنقلُ بخيالي إلى مكة المكرمة يومَ دخلها رسولُ الله ﷺ
 منتصراً، فاجتمعَ الناسُ إليه، ووقفوا أمامه في هيئةٍ وجلالٍ
 ينتظرون العقابَ الأليمَ الذي سينزلُهُ همُ النبي ﷺ، الذي قال
 لهم : ما تظنون أني فاعلٌ بكم ...؟

قالوا : خيراً ، أخٌ كريمٌ وابنٌ أخٍ كريمٍ .
 فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء، (لأثرِيبَ عليكمُ اليومَ يغفرُ اللهُ
 لكم وهو أرحمُ الراحمين)^(١) فكان نتيجةَ هذا العفوِ الكريمِ،
 والخُلُقِ العظيمِ أن دخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجا عن رضَى
 وطواعيةً.

وكذلك كان خُلُقُ صلاحِ الدينِ رحمه الله تعالى يتسمُ
 بالعفوِ والصفحِ والمعاملةِ الحسنةِ تأسيًا برسولِ الله ﷺ ، معلمِ
 البشريةِ الخيرَ والصلاحَ والفلاحَ.

وكذلك حصل لصلاحِ الدينِ يومَ فتحَ بيتِ المقدسِ،
 فدخلَ الفرنجُ في دينِ الله أفواجا عن إيمانٍ وقناعةٍ، ودخلوا في
 صفوفِ المسلمين وقاتلوا معهم، وجعلوا سيوفَهُمُ التي كانت

(١) الآية ٩٢ من سورة يوسف.

عليهم توجّه معهم إلى رقاب أهل الكفر والشرّ والعُدوان من الفرنج وغيرهم من أعداء الله والدين والتاريخ والإنسانية.

أولُ جمعة أقيمت ببيت المقدس

علمنا مما تقدم أن المسلمين دخلوا بيت المقدس يوم الجمعة قبل الصلاة، فلم يتمكنوا من إقامتها لضيق الوقت، وانشغالهم بالفتح والحذر من تحركات العدو وغدره، وإنما أقيمت في الجمعة التالية بعد تطهير المسجد الأقصى من الصلبان والنواقيس وجميع مظاهر الكفر، وإعادته إلى سالف عهده مما كان عليه من مظاهر التوحيد والإيمان، وتُودي فيه بالأذان، وتُلي فيه القرآن وأصدر السلطان صلاح الدين مرسوماً وهو في قبة الصخرة مفادُهُ : أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيباً وهو الذي نظم معنى الرؤيا التي رآها مجدُ الدين بن جُهَيْل الشافعي التي تقدم الحديثُ عنها، وهي قوله :

ولتُحْكَمْ حلبُ الشهباء في صفر قضى لكم بالفتح القدس في رجب

فأذن المؤذنُ لصلاةٍ أولِ جمعةٍ بعد الفتحِ والتحريرِ، وذلك في الرابع من شهرِ شعبانَ بعد الفتحِ بثمانية أيامٍ، فنُصِبَ المنبرُ إلى جانبِ المحرابِ، وبُسطَ السجّادُ، وعُلِّقَتِ القناديلُ، وجاءَ الحقُّ، وبطلَ الباطلُ، وضاقَ المسجدُ بأهله، وبكى المسلمون بكاءً الفرحِ، وسكبوا دموعَ الصدقِ والسرورِ، وهتفتِ الحناجرُ بنشيدِ التوحيدِ، وتلّوا قولَ الإخلاصِ، وهتفوا بـ : قل هو الله أحد. الله الصمدُ. لم يلدْ، ولم يولدْ. ولم يكنْ له كفواً أحد.

ثم ارتدى القاضي محيي الدين بنُ الزكي البردةَ السوداءَ، وصعدَ المنبرَ وسطَ بكاءٍ ونحيبِ المسلمين تعبيراً عن فرحتهم الغامرة، وبهجتهِ العظيمة.

ثم ابتدأ خطبتهُ السنّية بلغة فصيحة بليغة، افتتحها بقول الحقِ تبارك وتعالى : (فقطّع دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمدُ لله رب العالمين)^(١) ثم ذكر شرفَ البيتِ المقدسِ ومكانتهُ عند المسلمين، وما ورد فيه من الفضائلِ العظيمة، والدلائلِ والأماراتِ السنّية في القرآنِ الكريمِ والسنةِ النبويةِ المطهرة.

(١) الآية ٥٥ من سورة الأنعام

نصُّ الخطبة

ذكر ابنُ الزكي يومئذٍ خطبةً جامعةً ، تشتملُ على مفرداتٍ جزلةٍ قويةٍ، وعباراتٍ فخمةٍ بليغةٍ، قال فيها :

(الحمدُ لله معزُّ الإسلامِ بنصرِهِ، ومذلُّ الشوكِ بقهرِهِ، ومصرفُ الأمورِ بأمرِهِ، ومزيدُ النعمِ بشكرِهِ، ومستدرجُ الكافرينِ بمكرِهِ، الذي قدَّرَ الأيامَ دُولاً^(١) بعدله، وجعلَ العاقبةَ للمتقينِ بفضله، وأفاضَ على العبادِ من طَلِّهِ وهطَلِّهِ الذي أظهرَ دينَهُ على الدينِ كُلِّهِ، القاهرِ فوقَ عبادِهِ فلا يمانعُ، والظاهرِ على خَلْقِهِ فلا يَنازِعُ، والآمرِ بما يشاءُ فلا يَراجعُ، والحاكمِ بما يريدُ فلا يَدافعُ.

أحمَدُهُ على إظفارِهِ وإظهارِهِ، وإعزازِهِ لأوليائِهِ ونصرةِ أنصارِهِ، ومطهرِ بيتِ المقدسِ من أدناسِ الشوكِ وأوضارِهِ، حمدًا مَنْ استشعرَ الحمدَ باطنَ سرِّهِ، وظاهرَ أجهارِهِ.

وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحده لا شريكَ له الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلدْ ولم يولَدْ. ولم يكنْ له كفواً أحدٌ، شهادة

(١) دُولاً : أي أن الأيامَ متداولةٌ يومٌ بكذا، ويومٌ بكذا.

مَنْ طَهَّرَ بِالتَّوْحِيدِ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى بِهِ رَبَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ، رَافِعُ الشُّكْرِ، وَدَاحِضُ الشُّرْكِ، وَرَافِضُ الْإِفْكِ، الَّذِي
أَسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَغُرِجَ
بِهِ مِنْهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى، إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ
الْمَأْوَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ مَا طَغَى، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى
خَلِيفَتِهِ الصَّدِيقِ السَّابِقِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ أَوَّلِ مَنْ رَفَعَ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ شِعَارَ الصُّلْبَانِ، وَعَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ذِي النُّورَيْنِ جَامِعِ الْقُرْآنِ، وَعَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَزْلُوقِ الشُّرْكِ، وَمَكْسَرِ الْأَصْنَامِ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ).

ثم ذكر موعظة عظيمة تشتمل على تغيب الحاضرين بما
يسره الله على أيديهم من نصر مبين، وفتح عظيم، وأنهما من
عند الله الواحد القهار القائل في كتابه العزيز : (قل للذين
كفروا ستُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان
لكم آية في فتنتين التقتا ففئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة

يروهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره مَنْ يشاءُ إنَّ في ذلك
لَعِبْرَةً لأولي الأبصار.^(١)

ثم ذكر فضائل المسجد الأقصى ومكانته عند المسلمين،
وبيَّن أنه أولُ القبلتين، وثاني المسجدين، وثالثُ الحرمين، وأنه
لا تُشَدُّ الرحالُ بعد المسجدين إلَّا إليه، ولا تُعَقَّدُ الخناصرُ بعد
الموطنين إلَّا عليه، وإليه أُسْرِيَ برسولِ الله ﷺ من المسجدِ
الحرام، وصَلَّى فيه بالأنبياء والرسل الكرام، ومنه كان المعراجُ
إلى السماواتِ العُلى، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجدِ الحرامِ
على البراق.

وهو أرضُ المحشر والمنشرِ يومَ التلاقِ، وهو مقرُّ الأنبياءِ
ومقصدُ الأولياءِ، وقد أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ.
ثم ذكر تمامَ الخطبتين، ثم دعا للخليفةِ الناصرِ العباسي،
وللسُلطانِ الناصرِ صلاحِ الدين.

هذا ... وبعد فراغهم من أداء صلاة الجمعة علم
صلاح الدين رحمه الله تعالى أنَّ ابنَ جهيلٍ هو الذي قال أولاً :

(١) الآيتان ١٢-١٣ من سورة آل عمران.

وفتحكم حلبَ الشهباءَ في صفرٍ ... الخ وليس ابنُ الزكي،
فأكرمهُ بوظيفةِ التدريسِ على الصخرةِ، وأجزَلَ له العطاءَ،
وأحسنَ عليه الشَّاءَ، وأبقى ابنُ الزكي خطيباً للمسجدِ الأقصى.

من غرائب التفسير

جاء في تفسير أبي الحكم الأندلسي المعروف بابن
برجان، في أولِ سورةِ الرومِ أخباراً عن فتحِ بيتِ المقدسِ، وأنه
يُنزَعُ من أيدي النصارى سنة ثلاثٍ وثمانينَ وخمسمائةٍ.

قال السخاوي معلقاً على ذلك : (ولم أرهُ أخذ ذلك
من علمِ الحروفِ، وإنما أخذه، فيما زعم من قوله (ألم . غَلِبَتْ
الرومُ في أدنى الأرضِ وهم من بعدِ غلبِهِم سيغلبون في بضع
سنين) ^(١) فبنى الأمرُ على التاريخِ كما يفعلُ المنجمون، فذكر
أنهم يُغلبون في سنةٍ كذا وكذا، ويغلبون في سنةٍ كذا وكذا
على ما تقتضيه دوائرُ التقدير.

ثم قال : وهذه نجابةٌ وافقتْ إصابةً، إن صحَّ، قال ذلك
قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه.

(١) الآيات ١-٢-٣ من سورة الروم.

قال : وليس هذا من قبيلِ علم الحروفِ ، ولا من بابِ
الكراماتِ والمكاشفاتِ ، ولا يُنالُ في حسابِ .

وقد ذكر ابنُ برجانَ ذلك في تفسيرِه في حدودِ سنةٍ
اثنين وعشرين وخمسمائةٍ أي في زمنِ الملكِ نورِ الدين الشهيد
رحمه الله تعالى الذي يُروى أنه حين سمع بهذا التفسيرِ تمنى أن
يعيشَ إلى سنةٍ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائةٍ ، فتهياً لأسبابِ ذلك
حتى إنه أعدَّ منبراً عظيماً لبيتِ المقدسِ إذا تمَّ فتحُه على يديه ،
فلم يتحققَ أملهُ فمات قبل ذلك .

فلما تمَّ الفتحُ على يدِ صلاحِ الدينِ رحمه الله تعالى ،
أرسل إلى مدينةِ حلبَ فاستحضرَ المنبرَ المذكورَ ، فوضعه إلى
جانبِ المحرابِ في المسجد^(١) الأقصى أعاده الله تعالى إلى ظلِّ
الإسلامِ بمنِّهِ وكرمه كما أعادهُ في زمنِ صلاحِ الدينِ الأيوبي
رحمه الله تعالى ... آمين .

(١) البداية والنهاية بشيءٍ من التصرف .

حصار مدينة صور

في الخامس والعشرين من شهر شعبان، وبعد فتح بيت المقدس بثمانية وعشرين عاماً غادر السلطان صلاح الدين بيت المقدس قاصداً مدينة صور بالساحل الشامي، وكان قد استحوذ عليها بعد وقعة حطين رجل من الفرنج يُقال له (المركيز)^(١) فحصنها وضبط أمرها، وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر، وإذا به يُفاجأ بجيوش المسلمين تحاصره براً وبحراً، فصمد في وجههم، وقاومهم واستطاع أن يستولي على خمس قطع من أسطولهم، الأمر الذي أغضب المسلمين وجعلهم يقفون واجمين حزناً وتأسفاً على ما أصابهم، وقد دخل عليهم فصل الشتاء برده وثلجه وطول ليليه، خاصة وقد أوشكت مؤونتهم أن تنفذ، فسألوا السلطان صلاح الدين أن يذهب بهم إلى دمشق للراحة، واستعادة القوة والنشاط، وانتهاء فصل البرد، ثم يعودون إليها وهم أشد قوة، وأكثر نشاطاً، وأعظم حيوية واستعداداً، فأجابهم إلى ذلك وهو متردد، فمر

(١) المركيز أو المركيس: لقب لرجل شريف من أغنياء الفرنج، وهو بمثابة حاكم. فتح بيت المقدس

بطريقه على عكا فنزل بقلعتها، وأسكن ولده الأفضل برج
الداوية، فأشار عليه بعضهم بتخريب مدينة عكا خوفاً من عود
الفرنج إليها، فلم يفعل بل أقر بعماريتها، وترميم ما تهدم منها،
وتجديد الأماكن الهامة فيها.

ثم توجه إلى دمشق مؤيداً منتصراً، وأقبل إليه الملوك
والأمراء من كل مكان بالهدايا الثمينة، والتحف الفاخرة.

وجاءه كتاب الخليفة يحمل عبارات اللوم والعتاب في
عدة أمور، منها : أنه بعث إليه ببشارة فتح حطين شاباً بغدادياً
كان وضيعاً عندهم، لا قدر له ولا مكانة بين الناس، في حين
أرسل ببشارة فتح القدس مع فارس مشهور، وأنه لقب نفسه
بالناصر مضاهاة للخليفة، وغير ذلك !!...

فتلقاها صلاح الدين رحمه الله تعالى بقلب واسع كبير،
وصدر حلیم رحيب، وأظهر البشر واللفظ والتواضع،
والسمع والطاعة، وأرسل إليه يعتذر مما وقع منه بغير قصد أو
سوء نية، فقال : إن الحرب كانت قد شعلته عن التروى في
كثير من الأمور.

وأما لقبه بالناصر، فقد كان من أيام الخليفة المستضيء.

وقال له بكل لطف وتواضع : ومع هذا فمهما لقّيني أمير المؤمنين فلا أعدلُ عنه، وأظهر له التأدّب والاحترام، حتى أنساه ما عاتبه فيه ولامه عليه.

حصارُ حصنِ كوكب^(١)

خرج صلاح الدين من دمشق فحاصر حصن كوكب فرآه منيعاً صعب الاختراق فترك فيه الأمير قائمازَ البجمي في خمسمائة فارس يحاصرونه ويضيقون على أهله المسالك، ثم توجه إلى صفد^(٢) وكانت للداوية، فترك فيها طغربك الجامدار مع خمسمائة فارس أيضاً ليقطعوا عليهم طريق الإمداد والتموين، وكذلك بعث إلى الكرك^(٣) من يحاصر أهلها ويضيق عليهم ليعيد هجومه على هذه الأماكن بعد أن يصيبهم الوهن والضعف ويصبحوا عاجزين عن المقاومة فيتسنى له فتحها بأيسر أمر.

(١) لم يحدد ياقوت موقع هذا الحصن، ولم أهد إليه.

(٢) صفد بالفين أو الفاء : مدينة في جبل عامل ببلتان مطلة على حصن بالشام.

(٣) الكرك : قرية في أصل جبل لبنان . انظر معجم البلدان.

ولما رجع إلى دمشق وجدَ وكيلَ خزانته قد بنى له داراً عظيمةً مدهشةً في الجهة الجنوبية من القلعة، فغضبَ عليه وعزَلَهُ، وقال له : إنا لم نُخلَقْ للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد، وإنما خُلِقنا لعبادة الله ﷻ والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملتهُ مما يثبُطُ النفوسَ ويقعدها عما خُلِقَتْ له.

ثم خرج من دمشق يبحثُ عن جهادٍ جديدٍ، فقصَدَ البقاعَ، ومنه إلى حمصَ وحماةَ، وعسكرَ على ضفةِ العاصي، وضُرِبَتْ له خيمةٌ عظيمةٌ يستقبلُ فيها أمراءَ الجيوشِ القادمين إليه من الجزيرة وغيرها للجهادِ في سبيلِ الله تحت قيادته، فمضى بهم إلى الساحلِ الشامي، ففتح طرطوس^(١) وغيرها من الحصون، ثم فتح جبلة^(٢) واللاذقية^(٣)، وكانتا من أحصن المدنِ عمارةً، وأغناها زينةً وجمالاً.

ومضى في الساحلِ الشامي وجباله يفتحُ البلادَ والحصونَ، ويسقطُ العروشَ، ويحتلُّ القلاعَ، ويكسرُ شوكةَ الفرنج، ويدُلُّ الشركَ وأهلَهُ حتى دانتْ له مناطقُ الساحلِ

(١) طرطوس : مدينة عظيمة مشهورة ومعروفة، تقع على البحر في الساحل السوري.

(٢) جبلة : مدينة معروفة في الساحل السوري قرب اللاذقية.

(٣) اللاذقية : مدينة عظيمة مشهورة من أهم مدن الساحل السوري.

بأسره بعد أن فتح قلعة صهيون^(١) وبكأس والشجر وهما قلعتان حصيتان على العاصي فتحهما عنوة بقوة الرجال وحد السيف.

فتح حصن برزية^(٢)

وهي قلعة عظيمة تقع على جبل شاهق منيع، تحتها أودية عميقة جداً يضرب بها المثل في التحصين والمنعة وعسرة الوصول إليها فضلاً عن اقتحامها، ولقد حاصرها صلاح الدين حصاراً شديداً، وأحاطها بالمجانيق القوية الضخمة، وجعل جيشه ثلاث فرق كل فرقة تقاتل على حدة، حتى إذا تعبوا خلفتهم الفرقة الأخرى، وهكذا، ولا يزال القتال مستمراً ليلاً ونهاراً بلا توقف ولا انقطاع.

ولقد أبدى المسلمون في هذه الموقعة بطولة نادرة، وشجاعة فائقة أثمرت الفرنج وأثارت دهشتهم واستغرابهم.

(١) وهي معروفة اليوم بقلعة صلاح الدين، تقع في محافظة اللاذقية، على ذروة جبل قرب الحفة في مكان حصين، بناها الصليبيون سنة ٥١٣ هـ، ثم أخذها منهم صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ بأمر رغم منعها وحصانها.

(٢) لم يذكره ياقوت، ولم أعتد إلى تحديد موقعه.

هذا ... وكلما تبدلت فرقة وجاءت أخرى تقاتل
مكانها لتذهب الأولى إلى الراحة اعتقد جنود الفرنج أن أمداداً
كثيرة وهائلة تصل إلى المسلمين تباعاً بلا انقطاع، فألقى
الرعب في قلوبهم، وهنت قواهم، وضعفوا عن متابعة القتال،
فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وسقطت القلعة في أيدي
المسلمين على يد الفرقة التي كان يقودها صلاح الدين رحمه الله
تعالى.

صلح إنطاكية

ثم ارتحل عن ذلك ومعنى إلى حصن دريساك وحصن
بغراس ففتحهما عنوةً بجدّ السيف .

ثم سمّت به همتة العالية وطموحه الشديد إلى فتح
إنطاكية وذلك أنه فتح جميع ما حولها من المدن والقرى،
فزحف إليها وحاصرها حصاراً شديداً، واستظهر عليها بكثرة
الجنود، فراسلها صاحبها يطلب منه الصلح والهدنة وإطلاق ما
عنده من أسرى المسلمين، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك لعلمه
أن بعض أفراد الجيش قد ضجر من القتال، وتاقت نفوسهم إلى
الراحة مع أهلهم، وتمت الهدنة لمدة سبعة أشهر، وأطلق سراح
فتح بيت المقدس

الأسرى فتوجهَ إلى حلبَ، فنزل بقلعتها ثلاثة أيامَ، ثم مضى إلى حماةَ ومنها إلى دمشقَ، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك، ولم يكذْ يدخلُ دمشقَ حتى جاءتهُ الكتبُ تحملُ إليه البشائرَ بفتح الكركِ وإنقاذهِ من أيدي الفرنجِ، وأراح الله منهم العبادَ والبلادَ، وفرحتْ بذلك السهولُ والجبالُ، ففُطِعَ دابرُ الذين ظلموا والحمدُ لله ربَّ العالمين.

فتح صفد وحصن كوكب

أقام صلاح الدين في دمشق النصفَ الأولَ من شهر رمضانَ من سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائةَ، ثم غادرها قاصداً صفدَ التي كان قد حاصرها من قبل وترك حولها خمسمائةَ فارسٍ على رأسهم طغرل بك الجامدار، فحاصرها في النصف الثاني من شهر رمضانَ تيمناً بهذا الشهر الكريمِ، شهر الخيراتِ والبركاتِ والنفحاتِ، شهرِ المعاركِ والغزواتِ، والملاحمِ والانتصاراتِ.

هذا ... وكان البردُ شديداً جداً، يكادُ الماءُ منه يصبحُ جليداً، فكأنتُ معاناةُ جنودِ المسلمينَ حينئذٍ شديدةً، ومقاساتهمُ

البردَ صعبةً، ومكابدُهمُ الجوعَ والألمَ قاسيةً، ولكنهم مع هذا كله صبروا صبراً جميلاً، وثبتوا ثباتاً مشرفاً، وصمدوا صمودَ الأبطالِ حتى ذُلَّتْ لهمُ الصعابُ، وسَهِّلَ عليهمُ اقتحامُ الحصونِ والأسوارِ، فبَدَتْ لهمُ راياتُ التسليمِ تحفُّقُ على رؤوسِ الحصونِ، وإذا السيوفُ أُلْقِيَتْ، والرماحُ تساقطتْ، وأصواتُ الفرنجِ تناديهم وتطلبُ منهمُ الأمانَ، وتفتحُ لهمُ الأبوابَ، فدخلوها منتصرين مظفرين يملؤهمُ الفخرُ، ويزدهيهمُ النصرُ، وكان ذلك في الثامنِ من شهرِ شوالٍ من السنة ذاتِها.

ثم سارَ منها إلى مدينةِ صورٍ فاستسلمتُ فوراً، وألقتُ إليه بقيادِها، وتبرأتُ من أنصارِها وأجنادِها وقوادِها، وتحققتُ بعد سقوطِ صَفَدَ أنها مقرونةٌ معها في أَصْفادِها.

ثم غادرها وسارَ يقودُ جيشَهُ إلى حصنِ كوكبَ، وكان معقِلَ الاستبارية^(١) كما أنْ صَفَدَ كانت معقِلَ الداوية، وكانوا أبغضَ أجناسِ الفرنجِ إلى السلطانِ لا يكادُ يقبضُ على أحدٍ منهم إلا قتلَهُ، ولقد حاصر تلكَ القلعةَ حتى استولى عليها،

(١) الفرسان الاستباريون : هم فرسان صليبيون كان مقرهم القلعة بدار ياوي إليها مرضى الفرنج.

وَقَتْلَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْفَرَنْجِ وَأَرَاخَ النَّاسِ مِنْ فُسَادِهِمْ وَشُرُورِهِمْ،
إِلَّا مَنْ اسْتَسْلَمَ مِنْهُمْ فَلَقَدْ عَفَا عَنْهُ وَتَرَكَهٗ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ.

موقعة عكا

خَرَجَتْ فُلُوكُ الْفَرَنْجِ وَخَاصَّةُ الْفَارَّيْنِ مِنْ مَدِينَةِ صُورٍ
الَّتِي اسْتَسْلَمَتْ وَأَلْقَتْ السِّلَاحَ، فَسَارَ هَؤُلَاءِ فَأَحَاطُوا بِمَدِينَةِ
عَكَا وَحَاصَرُوهَا بِغِيَّةٍ احْتِلَالِهَا وَأَخَذَهَا مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ
الَّذِينَ تَحَصَّنُوا فِيهَا، وَأَعْدَوْا لِهَذَا الْحَصَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ
حِمَايَةٍ وَمُؤْنٍ وَمَوَادٍّ غِذَائِيَّةٍ، وَفِرْسَانٍ قَادِرِينَ عَلَى حِمَايَتِهَا
وَالدِّفَاعِ عَنْهَا.

هَذَا ... وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ مُقِيمًا فِي دِمَشْقَ فَبَلَغَهُ خَبْرُ
هَذَا الْحَصَارِ، فَجَهَّزَ الْجَيْشَ وَسَارَ مُسْرِعًا إِلَيْهَا، فَوَجَدَ الْفَرَنْجَ
قَدْ تَجَمَّعُوا حَوْلَهَا، وَحَاصَرُوهَا حَصَارًا مُحْكَمًا، وَأَحَاطُوا بِهَا
إِحَاطَةً السَّوَارِ بِالْمَعْصَمِ، فَانْقَضَ عَلَيْهِمْ وَدَارَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ
مَعْرَكَةٌ قَوِيَّةٌ وَحَامِيَّةٌ، وَصَمَدُ كُلِّ فَرِيقٍ فِي وَجْهِ صَاحِبِهِ صَمُودًا

قويًا، وبدت من الفريقين مقاومةً عنيفةً كلُّ فريقٍ يحرصُ على التغلبِ على الآخرِ.

ولقد أبلى المسلمون فيها بلاءً حسنًا، وأظهروا فيها شجاعةً نادرةً استطاعوا أن يتغلبوا على أعدائهم، ويعدوهم عن أماكنهم، ويفتحوا ثغرةً في قلب الجيشِ المعادي، ثم يجعلوها طريقاً يدخلون منه إلى باب القلعة.

هذا ... والقتالُ على أشدهِ قويًا ضارياً، المسلمون يوجهون كل طاقاتهم وإمكاناتهم للمحافظةِ على استمرار فتح الثغرة، وعدم تركِ فرصةٍ للفرنج أن يسدّوها.

والفرنجُ يستعملون كل ما يملكون من قوةٍ لسدِّ هذه الثغرة، وكأنَّ المعركةَ قد تحوّلتُ إلى هذه الثغرةِ.

ولقد نجح المسلمون في التغلبِ على الفرنج فوسعوا الثغرةَ وأدخلوا منها الأمتعةَ والمعدات القتاليةَ، ودخل السلطانُ صلاحُ الدين بنفسه يقود فرقةً إلى داخل المدينة، وبقيتُ فرقةٌ أخرى تصدُّ الفرنجَ وتناوشهم لئلا يمنعهم من دخولها.

ولقد علا صلاحُ الدين على سورِ المدينة، ونظر إلى الفرنج وهم خارجها وحولها، فرأى كثرتهم وعددهم وعدتهم،

ورأى السفنَ تَفْدُ إليهم من البحرِ في كل وقتٍ دون انقطاعٍ ،
تَحْمِلُ إليهمُ الإمدادَ من المقاتلين والمؤنِ بكمياتٍ كبيرةٍ ،
وأعدادٍ هائلةٍ، وهم في كل وقتٍ وحينٍ في ازديادٍ، ثم توجَّهَ إلى
مُخِيَمِهِ داخلَ مدينةِ عكا وهو حريصٌ على حمايتها والدفاعِ عنها
مهما يكنُ الثمنُ باهظاً، والمعاناةُ شديدةً، والمعركةُ طويلةً.

وفي العشرِ الأخيرِ من شهرِ شعبانَ سنةٍ خمسٍ وثمانين
وخمسمائةٍ تجددَ القتالُ، وبرز الفرنجُ من مراكزهم القادمة من
البحرِ في نحوٍ من ألفي فارسٍ وثلاثين ألفَ راجلٍ، فبرزَ إليهم
صلاحُ الدينَ بِجُنُودِهِ الشجعانِ فقاتلهم بِمِرجِ عكا قتالاً شديداً،
وصمدوا في وجهِهِ صموداً قوياً لدرجةٍ أن عدداً من فرسانِ
المسلمين هربوا أثناء القتالِ، وبقيَ غيرُهم ثابتين في أماكنهم
جائدين في منعِ الفرنجِ من دخولِ عكا، حتى نصرهم اللهُ تعالى
نصراً مؤزرًا، فكانتِ الدائرةُ على الفرنجِ الذين فقدوا أكثرَ من
سبعةِ آلافِ قتيلٍ، ومَن بقيَ منهم فرَّ هارباً يطلبُ النجاةَ.

وبقي صلاحُ الدينَ رحمه اللهُ تعالى في مكانه ينتظرُ
عودةَ الفرنجِ ليعطيهم درساً آخرَ في عدمِ الاقترابِ من بلادِ

المسلمين، ولكنه تحولَ من هذا الموضع ليأخذ مكاناً آخر يربطُ فيه بعيداً عن روائح القتلى ، وخوفاً من انتشار الأوبئة والأمراض، وليأخذ الجنودُ قسطاً من راحة الأبدان والأعصاب، ولكنه لم يعلمَ بأن تحوُّله عن مكانه الأول كان لصالح العدوِّ مائة في المائة، فلقد اغتنموا هذه الفرصة فحفروا حول مخيماتهم خنادقَ كبيرة وعميقة، واتخذوا من ترابها سوراً شاهقاً، وجعلوا له أبواباً يخرجون منها متى أرادوا أن يخرجوا، وثبتوا في مكانهم هذا وصار لهم موقعاً دفاعياً محصناً غاية التحصين.

أما المسلمون فحينما علموا بذلك ذهَلوا منه، وصُدِموا بصورة عنيفة، وأدركوا أنهم هم الذين أتاحوا لعدوِّهم الفرصة ليتحصنوا في موقعهم، وليتخذوا لأنفسهم ترساً طبيعياً واقياً، فاشتدَّ عليهم الأمر، وقوي الخطبُ، وصار الداءُ عضالاً، وازداد الحالُ وبالاً، اختباراً من الله تعالى وامتحاناً، وهم يرون جنودَ الفرنج تأتيهم مدداً بشكلٍ دائمٍ ومستمرٍ تبعاً، فأدركوا أنَّ المناجزةَ باتتْ صعبةً، وأصيبوا بالمللِ وخيبة الأملِ.

فجعلَ صلاحُ الدينِ يرسلُ الملوكَ يستفْزُهُم ويستنصرُهُم، وكتب إلى الخليفة يطلعه على حقيقة الأمر، ويصورُ له الحالةَ التي يعيشُها، ويقاسي آلامها وهو في مريضه

فتح بيت المقدس

يراقبُ تدفقَ جنودِ الفرنجِ إلى ساحلِ عكا من البرِّ والبحرِ، فجاءتهُ الأمدادُ جماعات... جماعاتٍ ، ثم أرسل إلى مصر يطلبُ من أخيه العادل أن يُمدِّه بما استطاع من قوة، فقدمَ إليه بنفسه يقودُ الأسطولَ المصريَّ شخصياً، وجاءهُ الأميرُ حسامُ الدين لؤلؤ ومعه خمسونَ قطعةً بحريةً.

فلما رأى الفرنجُ ذلك هابوهم، وخافوا منهم، وتحوَّلتْ مراكزُهم في البحرِ بمنَّةٍ ويسرةً، وشعروا بالإحباطِ يصيِّهم، وأحسَّوا بخيبةِ الأملِ، وأيقنوا أنه لا قِبَلَ لهم في مواجهةِ هذه القوةِ الهائلةِ، التي فوجئوا بها ولم يحسبوا لها حساباً.

هذا ... ولقد اتصل العدوُّ بالمسلمين، ودخل المددُ والمؤنُ والموادُّ الغذائيةُ مدينةَ عكا على مرأى ومسمعٍ من جيوشِ الفرنجِ الضخمةِ والكثيرةِ، ولم يستطيعوا منعها أو التعرُّضَ إليها. وفرحتْ بذلك نفوسُ المسلمين، وانشرحتْ له صدورُهم، واطمأنتْ به قلوبُهم، وشكروا الله على ما هداهم، وحمدوه على ما أولاهم، وتفضَّلَ به عليهم.

الفتنة

اجتمع جماعة من الرهبان والقساوسة الذين أُخرجوا من بيت المقدس بعد فتحه وتحريره، وذهبوا يطوفون البلدان، ويقطعون البراري والبحار يحرّضون الفرنج على المسلمين، ويحثّونهم على الانتصار لبيت المقدس، ويوغرون صدورهم، ويلفقون الأكاذيب، ويختلقون التهم، ويذكرون لهم أن العرب المسلمين أنزلوا بنصاري بيت المقدس سوء العذاب، وقتلوهم بصورة بشعة ووحشية، وكذلك فعلوا بأهل السواحل من قتل وسيي وتشريد وهدم منازل، وخراب ديار.

وأثمّ صوّروا صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه ويؤذيه، فإذا سألوهم : مَنْ هذا الذي يضربُ المسيح ... ؟ قالوا : هذا نبيُّ العربِ يضربه، ولا يزالُ يضربه ويجرّحه حتى مات.

فيغضبون لذلك، ويكونون يحزنون.

ثم اجتمعَ بعضُ الجاهلين منهم والمتعصبين لعقيدتهم
فأقسموا أن ينتصروا لذلك، ويتقموا من المسلمين أشدَّ
الانتقام.

فعند ذلك خرجوا من ديارهم، وأرعبت أوربا كلها،
واستنفرت جيوشها وقواتها لنصرة دينهم ونبئهم فيما يزعمون
وحماية الصليب كما يدعون.

وأخذت جيوش الفرنج تفتد إلى عكا، وتنزل
السواحل الشامية بأعداد هائلة وقوة ضخمة وقوية، حتى ضاق
بهم البر والبحر، وغص بهم الساحل مع اتساعه وطوله وعرضه.
وشاع الخبر بين المسلمين والفرنج بأن ملك ألمانيا قد
أقبل من جهة القسطنطينية بثلاثمائة ألف مقاتل يريد احتلال
الشام كله وقتل أهله وتشريدهم انتصاراً لبيت المقدس وما
فعلوه بأهله.

ولقد احتمل المسلمون من هذا النبا هماً عظيماً،
وحسبوا للأمر حسابه، خاصة وهم يرون في كل لحظة قوات
الفرنج تندفق عليهم من البحر كالسيل الجارف حتى ضاق بهم
السهل والجبل مع ما هم فيه من حذر ومراقبة وحصار قوي
فتح بيت المقدس

وهائل، فازدادوا همًا وأصبحوا أكثر حذرًا، وأشدَّ تيقظًا واستعدادًا لمواجهة العدو الشرس الذي جمع لهم كل طاقاته، وشحذ لهم جميع أنيابه ومخالبه .

في الوقت الذي ارتفعت فيه معنويات جنود الفرنج، وقويت شوكتهم فأخذوا يستعملون الغدر والمكر، وأساليب الفتنة والإثارة واللاعلاقية. لإغراء جنود المسلمين وإلهائهم عن القيام بالواجب المنوط بهم، وذلك بأنهم اختاروا ثلاثمائة امرأة من أجل نسايتهم وأشدهن فتنة، وأكثرهن إثارة وإغراء، وأخرجوهن بغية القتال، وقد ألبسوهن لباس المقاتلين من الرجال، حتى إذا أصبحوا على مقربة من معسكر جنود المسلمين خلعوا عنهن لباس الرجال فبدت شعورهن، وكشفن لهم عن صدورهن، وأظهرن لهم مفاتهن، ودخلن بين رجال المسلمين حتى إن كثيرا من الفسقة وضعاف الإيمان من المسلمين مالوا إليهن وجلسوا معهن، وربما قضوا منهن وطرا. فكان ذلك من أهم عوامل تسرب الضعف والوهن إلى صفوف جيش المسلمين.

صدُّ هجومِ الفرنجِ

انقضى فصلُ الشتاءِ ببردِهِ وثُلجِهِ، ودخلَ فصلُ الربيعِ
بجِوهِ الجميلِ وطقسِهِ المعتدلِ، وذلك أنسبُ لطبيعة الإنسانِ
العربي، وأحسنُ ملائمةً له من فصلِ البردِ وفي هذه الفترة أقبل
أمراءُ المسلمين وقادةُ الجيوشِ والملوكُ بخيولِها ورجالِها،
وشجعانِها وفرسانِها، فانضموا إلى السلطانِ صلاح الدين
ليشاركوه في صدِّ هجومِ الفرنجِ وكسرِ شوكتِهِم، وتحطيمِ
جمعِهِم، فكثُرَتْ تحتِ إمرتهِ الرجالُ، وارتفعتْ لنصرة دينِ الله
الراياتُ، وتضاعدتْ عباراتُ التكبيرِ والتهليلِ، فقويتْ بذلك
قلوبُ مَنْ ضَعُفَ من المسلمين، وارتفعتْ معنوياتُهُم القتاليةُ،
وزدادوا شوقاً لكسرِ شوكةِ عدوهِم، والقضاءِ على غروره،
وتحطيمِ غطرسته.

وأما الفرنجُ فقد انفتحَ لهمُ البحرُ، وأقبلتْ مراكبُهُ
وسفُنُهُ تحملُ العدَدَ والعدَدَ من المقاتلين من كلِّ جهة ومكان
تعصباً لصليهِم ونصرةً لأصحابِهِم، وكانوا قد عملُوا ثلاثة
أبراجٍ من خشبٍ وحديدٍ مغطاةٍ بجلودٍ مسقاةٍ بالخلِّ لئلا يؤثرَ
فيها عملُ النفطِ فلا تحترقُ، وكان كلُّ برجٍ على ضخامته يسعُ
خمسائةٍ مقاتِلٍ، وكانتْ جميعُها أعلى من أبراجِ سورِ البلدِ،

فتح بيت المقدس

وقد حملوها على عجالات ضخمة وقوية بحيثُ يجركونها
ويوجهونها كيف شاؤوا، وجعلوا على كُلِّ برجٍ منها منحنياً
كبيراً.

فلما رأى المسلمون تلك الأبراج وضخامتها وما فيها
من عتاد وجنود اغتموا منها، وأهمهم أمرها، وخافوا على البلد
ومن فيه من المسلمين أن يحصل لهم منها شرٌّ، أو يصيبهم منها
أذى، وحصل لهم منها ضيقٌ شديدٌ.

فجعل السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى ينظرُ في
أمرها، ويُعملُ فكره لإيجاد فكرة للتخلص منها، فاهتدى بعقله
الصائب، وفكره الثاقب إلى إحراقها، ولكن ... كيف ...؟

أتى له ذلك وعشرات الآلاف من جنود الفرنج حولها
تحميها وتحيطُ بها من كلِّ جانبٍ ... ؟

فاستدعى النفاطين ووعدهم بالهدايا الثمينة، والأموال
الجزيلة إن هم أحرقوها.

فنهض من بينهم شابٌ ممتلئُ قوةً وحيويةً، واندفاعاً
وحماساً، فقال : أنا لها ، والتزم بإحراقها.

وكان هذا الشاب نحاساً من دمشق يُعرفُ بعلي بن
عريف النحاسين، فقال له صلاح الدين : وفقك الله وحماك،

ودفع عنك كل سوء ومكروه ، فأخذ الشاب النفط الأبيض وخلطه بمواد معينة، وجعلها في ثلاثة قدورٍ من نحاسٍ، وأوقد تحتها ناراً حامية حتى وصلت إلى درجة عالية من الغليان حتى تأججت وصارت ناراً، فجعل يرمي تلك الأبراج، حتى رمى كل برجٍ منها بقدرٍ من تلك القدورِ بالمخانيقِ من داخل عكا، فاحترقت الأبراجُ الثلاثة وتحوّلت إلى نارٍ بإذن الله، ولها ألسنة متصاعدة في الجو أحرقت كل ما حولها وجعلته رماداً.

ففرح المسلمون بنصر الله، وصرخوا صرخة واحدة مكبرين مهللين حتى ارتفعت أصواتهم فعانقت السماء، فلم يبق في الأبراج جندي واحد، فلقد تحوّلت بما فيها إلى رماد، وكان يوماً على الكافرين عسيراً، ولم يجدوا لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً، لقد أسقط في أيديهم ، (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار.)^(١) .

وذلك في يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانين وخمسمائة.

(١) الآية ٢ من سورة الحشر.

وكان الفرنج قد بذلوا لتلك الأبراج أموالاً كثيرة،
وأمضوا لإعدادها وقتاً طويلاً، استمرَّ العملُ فيها سبعةَ أشهرٍ
عملاً متواصلاً، فاحترقت جميعها في يومٍ واحدٍ، ﴿وَكفى الله
المؤمنين القتالَ وكان الله قوياً عزيزاً﴾^(١).

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً﴾^(٢) .

لقد أراد صلاح الدين أن يبرِّ بوعده، فاستدعى ذلك
الشابَّ الدمشقيَّ الذكيَّ البطلَ، فعرض عليه المكافأةَ الماليةَ التي
وعَدَ بها، فامتنع أن يأخذَ منها درهماً واحداً، وقال : إنما عملتُ
ذلك ابتغاءَ وجهِ الله، ورجاءَ ما عندهُ سبحانه من الأجرِ
والتواب، فلا أريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً.

فهكذا فلتكنِ الرجالُ ... !!

وهكذا فلتكنِ الشجاعةُ ... !!

وهكذا يكونُ الصدقُ والإخلاصُ، وهكذا يكونُ البرُّ

والمُفَاءُ، والولاءُ والإباءُ ... !!

إنَّ تاريخنا الإسلاميَّ العريقَ، وتراثنا العربيَّ المجيدَ في

فجرِهِما وضحاها وظُهرهما ومَسائهما حافلان بمثلِ هذه

^(١) الآية ٢٥ من سورة الأحزاب.

^(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

الصور المجيدة، والمواقف الشجاعة النبيلة، والتضحيات العظيمة،
ولسوف تبقى عزة في جبين التاريخ تتناقلها الأجيال جيلاً بعد
جيل.

وليسَتْ هذه البطولة هي الأولى فلقد سبقَتْها بطولات
أعظم وأروع، وليسَتْ هي الأخيرة، فإنَّ الأمة التي أنجبت مَنْ
يقومُ بهذه البطولات الفدائية الرائعة قادرةٌ أن تنجبَ الكثيرين
... الكثيرين أمثالهم ، وإنَّها حينَ تفعلُ ذلك لاتفعلهُ إلا إذا
كانت قويةً صحيحةً معافاةً، وأمتنا الإسلامية صحيحةٌ معافاةٌ
دائماً بفضلِ القرآن الكريم الذي يغذي أرواحَ أبنائها، ويُذكي
فيهم روحَ البذل والعطاء، والتضحية والفداء، والإخلاصِ
والإباء، ويجعلهم يندفعون ليقْدِّموا أرواحهم ودماءهم رخيصةً
في سبيلِ الله، وفي سبيلِ العقيدة العظيمة التي اعتنقوها وآمنوا بها
... !!

هلاكَ ملكُ ألمانيا

لقد تحقَّق الناسُ من صحةِ النَبأِ القائلِ بأنَّ ملكَ ألمانيا قد
أقبلَ بثلاثمائة ألفِ مقاتلٍ لاحتلالِ الشامِ وقتلِ أهلهِ وتشريدِهِم
انتقاماً منهم. بما فعلوه بأهلِ القُدْسِ، وانتصاراً لقومِهِ وبني جلدتِهِ
من الإفرنجِ الصليبيين، فلقد أقبلَ فعلاً بهذه الأعدادِ الهائلةِ

فتح بيت المقدس

وأقسمَ أن يحتلَّ الشامَ وجميعَ بلادَ المسلمين، وأن يأخذَها بلدًا ... بلدًا حتى يصلَ إلى مكة والمدينة.

فلم يستطع أن يحققَ هدفه، ولم ينلْ مما أرادَ شيئاً، فإنَّ اللهَ له بالمرصاد، يعلمُ قصدهُ ونيتَه، ويعلمُ سرَّهُ وجهرَهُ، ويعلمُ ما يَكتم في نفسه، وما يُخطِّطُ لحربِ دينِ الله والصدِّ عن سبيله، لقد دَعَتْهُ نَفْسُهُ الأَمَارَةَ بالسوءِ وهوَّاهُ الذي لعبَ به، وشيطانُهُ الذي قادَهُ واستولى على عقله وقلبه، أن يعلنَ الحربَ على الله تعالى، تماماً كما فعل فرعونٌ من قَبْلُ حين قال : (يا هامان ابنِ لي صرحاً لعلِّي أبلغُ الأسبابَ. أسبابَ السماواتِ فأطلعَ إلى إلهِ موسى وإني لأظُنُّهُ كاذباً)^(١).

لقد دفعهُ غرورُهُ وجهلُهُ وغطرسَتُهُ أن يحاربَ الله ويصدِّ عن سبيله، ويسعى في الأرضِ الفسادَ (استكباراً في الأرضِ ومكرَ السيِّئِ ولا يَحِيقُ المَكْرُ السيِّئُ إلاَّ بأهله)^(٢)

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٣)

لقد غضبَ اللهُ عليه وعلى قومه، وأذاقهُ وبالَ أمرِهِ فأهلكهم قبل أن يصلوا إلى قصدهم، ويحققوا هدفهم.

(١) الآيتان ٣٦-٣٧ من سورة غافر.

(٢) الآية ٤٣ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

لقد سَلَطَ اللهُ عليهمُ البردَ والجوعَ والخوفَ، فضلَّوا الطريقَ، وهلكوا في المفاوزِ وضاعوا في البلادِ، فكانوا يُتَخَطَّفون فيها كمن تخطَّفُهُ الطيرُ، أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ، ويقادون كما يقادُ الحيوانُ النائمُ الذلولُ.

لقد رأى الملكُ وقومُه غمراً كبيراً سريعَ الجري، غزيرَ الماءِ، ففكر أن يسبحَ فيه ليجتازَ بهم إلى الضفة الأخرى فلما أصبحَ فيه حمله الماءُ إلى شجرةٍ اصطدمَ بها فشجَّتْ رأسه، وأخذتْ أنفاسه، وأخرجتْ معها روحَه وأراحَ اللهُ من شرِّه العبادَ والبلادَ.

فتولَّى الأمرَ من بعدهِ ولدُه الذي لم يكنَ أقلَّ منه سفاهةً وبشاعةً وشرّاً وفساداً.

ولكنهم تفرَّقوا في البلادِ، ومزَّقوا شرّاً ممزَّقٍ، وقلَّ عددهم، (وضُرِبَتْ عليهمُ الذلَّةُ والمسكنةُ وباؤوا بغضبٍ من الله) ^(١) (ملعونين أينما تُقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلاً) ^(٢)

^(١) الآية ٦١ من سورة البقرة.

^(٢) الآية ٦١ من سورة الأحزاب.

فكانوا لا يجتازون بلدًا، ولا يمرون بقومٍ إلّا قتلوا منهم،
فلما وصلوا إلى قومهم بعكا لم يكن عددهم يزيدُ عن ألفِ
فارسٍ من أصلِ ثلاثمائة ألف...!! ﴿ذلك بما قدمت أيديكم
وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد﴾^(١)

فلم يكثر بهم قومهم، ولم يرفعوا بهم رأساً، ولم تكن
لهم عندهم قيمة ولا وزن ولا عند أحد من أهل ملتهم ودينهم،
وذلك جزاء الكافرين، وهذا عقاب من حارب الله ورسوله،
وأراد أن يطفى نور الله، ويعتدي على حرمة، ويصد عن
سبيله، ويذل أوليائه ودينه.

وهناك رواية أخرى تقول: إن عدد الذين وصلوا منهم
كان خمسة آلاف فارس، ومهما يكن من أمر فإن الفارق
كبير، وإن من هلك منهم في الطريق كثير من أصلِ ثلاثمائة
ألف...!! والله أعلم.

(ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر
كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين)^(٢) ﷻ .

(١) الآية ٥١ من سورة الأنفال.

(٢) الأيتان ٥٠-٥١ من سورة النمل.

موقف ملوك الإفرنج من جند الألمان

وصل جنود ملك الألمان إلى عكا فلم يحفل بهم ملوك الإفرنج بل احتقروهم وظهرت على وجوههم علامات الاستياء والتأفف خشية من سطوتهم، وخوفاً من زوال دولتهم على أيديهم لقوتهم ومنعتهم، وشراستهم وسوء أخلاقهم.

ولم يفرخ بقدمهم إلا المركيز صاحب صور، وهو الذي أنشأ فتنة عكا، وأوقد نارها، فلقد كان ماكراً وداهية حرب، وخبيراً بأمور الحروب والتخطيط للمعارك، وهو الذي أنشأ أنواعاً مختلفة من آلات الحرب والحصار لم تخطر لأحد ببال، ونصب دبابات كالجبال تُحمل على عجلات ضخمة، تُوجّه حسب الحاجة، ولها سواعد قوية من حديد تضرب السور فتحرقه، وتثلّم جوانبه فمن الله تعالى على عباده المؤمنين بإحراقها، وأراحهم من خطرها، فله الحمد والمنة، وهو الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

استئناف القتال

رغم استياء ملوك الإفرنج وتأففهم من قدوم جند الألمان تولّى ملكهم أمر قيادة الفرنج جميعاً، فنهض بهم وصادم

فتح بيت المقدس

جيش المسلمين، وهو يعتقد أنه سوف يوقع الرعب في صفوفهم ويوهن قواهم إذا ما صادقهم وانقضَّ عليهم، ولكن حاب فآله، وخانه تفكيره وأوردَه وجيشه موردَ الهلاك والعطب، فلقد لقيته جنودُ المسلمين، وصمدوا أمامه صموداً مشرفاً، وواجهوه مواجهةَ الأبطالِ الشجعانِ الذين لا يهابون الموتَ ويستعذبون الردى، كما هم يهابون الموتَ، ويحرصون على الحياة.

لقد واجهَ قوماً أشداءَ صدّوا هجومه، وأبطلوا مخططه، وتغلبوا على أصحابه، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وجمعاً غفيراً، وردّوهم على أعقابهم خاسرين، فهذا الملكُ العادلُ أبو بكر، وكان رأسَ الميمنة يبصرُ فرقةً من جنود الفرنج يهجمون على مخيم صلاح الدين وهو ينظرُ إليهم، فأمرهم حتى توغلوا بين الخيام، فانطلق إليهم بجنوده الشجعان، ثم حمل عليهم بالسيوف والرماح، فأنزل في صفوفهم الموتَ الزؤام، وأذاقهم مرَّ الذلِّ والهوان برأسِ الرمح وحدَّ الحسام، فهربوا بين يديه كالقطعانِ الشاردة، وهو يتبعهم ويُعملُ سيفه، وما زال يقتلُ منهم جماعةً بعد جماعة، وفرقةً بعد فرقة حتى كسّوا وجهَ الأرضِ بدمائهم، وغطّوها بجثثهم، وأقلَّ ما قِيلَ في ذلك : إنه قتل منهم في ساعةٍ واحدةٍ خمسةَ آلافِ مقاتلٍ .

وهناك رواية عن ابن العماد تقول : إنه قتل منهم فيما بين الظهر والعصر عشرة آلاف ... والله أعلم.

هذا ما قام به أفراد ميمنة جيش المسلمين، في الوقت الذي لم يشعر طرفُ الميسرة بما جرى، ولم يعلم أحدٌ منهم بما حصل...!!

وكان الذين فعلوا ذلك لم يبلغوا ألفاً من المسلمين الذين لم يُقتل منهم سوى عشرة مقاتلين أو أقل، مع أنها كانت وقعة عظيمة أوهنت جيش الفرنج وأضعفت قواهم، وجعلتهم يتفرقون في أطراف الأرض، حتى كاد أمراؤهم يطلبون الصلح لينصرفوا من حيث أتوا، فاتفق قدوم مددٍ عظيمٍ إليهم من البحر مزود بمؤن وذخائر كثيرة، فانضموا إلى جيش الفرنج الذين جددوا نشاطهم، واستعادوا حيويتهم، وسرت الآمال إلى نفوسهم فعدلوا عن طلب الصلح واستأنفوا القتال، ونصبوا إلى جانب السور منحيقين أحرقهما المسلمون قبل استعمالهما.

وجاءت كتبُ صاحب القسطنطينية يعتذرُ للسلطان صلاح الدين من جهة ملك الألمان عن مروره ببلاده، وأنه لم يدخل بلاده باختياره، إنما تجاوزها رغماً عنه وبكثرة الجند. وقال له : ولكنّ ليستبشر السلطان خيراً بأن الله سيهلكهم في الطريق، وفي جميع البلدان، وقد وقع كما قال،

فتح بيت المقدس

وحدث كما تحدّثَ فُطِيعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين.

معركة البحر

كتب والي عكا وهو بهاء الدين قراقوش وهو محصورٌ داخلَ البلد، كتب إلى صلاح الدين يشكو إليه الحالة المتردية وما وصل إليه المسلمون من نقص في المواد الغذائية من جراء الحصار، وذلك في العشر الأول من شهر شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة، وأنه لم يبقَ في المدينة من الأقوات إلا ما يكفيهم إلى ليلة النصف من شعبان فقط.

فلما وصل الكتابُ إلى صلاح الدين كتم ما فيه، وأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم خوفاً من إشاعة ذلك فيطمع العدو ويقوى عليهم، وتضعفُ قلوبُ المسلمين، ويسري إليها الوهن، وتدبُ فيهم الفوضى.

وكان صلاح الدين قد كتب إلى أمير الأسطول في الديار المصرية أن يأتي بالميرة إلى عكا بأسرع وقت، فتأخّرَ مجيئه بسبب الظروف الحرجة في البحر، وانتشار قطع أسطول الفرنج في الشواطئ الشامية. وفي ليلة النصف من شعبان وصلت ثلاثة مراكبٍ محملة بالميرة والمواد الغذائية ما يكفي أهل عكا طيلة فصل الشتاء.

فلما أشرقت على البلد نهض إليها أسطول الفرنج ليمنعها من دخول عكا، وإتلاف ما فيها، فدارت بينهم في البحر معركة قوية، واقتلوا قتلاً شديداً، والفصل شتاءً، والطقس بارداً، والمسلمون في البر يتهلون إلى الله ﷻ بالدعاء لتعير مراكب المسلمين وسلامة ما فيها.

والفرنج يصرخون في البر والبحر، وقد ارتفع ضجيج الفريقين كل يشجع جيشه ويدعو له بالسلامة والنصر، فأجاب الله دعاء المسلمين فنصرهم، وسلمت مراكبهم، (والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم)^(١) ولم يجب دعاءهم، لأنه (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)^(٢) بل وأرسل عليهم ريحاً عاتية في ليلة شاتية باردة أحرقت مراكبهم المحيطة بالميناء، وسلمت مراكب المسلمين ودخلوا بميرتهم، وفرح بهم أهلها فرحاً شديداً . وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى قد جهز مركباً عظيماً كان قد استولى عليها من الفرنج، فحملها من ميناء بيروت بمختلف المواد الغذائية من لحم وجبن ودقيق وأسلحة وسهام ونفط كثير، ووجهها إلى مدينة عكا، وأمر من فيها أن يرتدوا لباس الفرنج، ويشدوا عليهم الزنانير ويحلقوا لحاهم،

(١) الآية ٨ من سورة محمد.

(٢) الآية ١٤ من سورة الرعد.

ويصطحبوا معهم عليها الخنازير كيلا يثيروا أي شبهة للفرنج إذا ما مروا بهم.

فانطلقوا في عرض البحر، فلما قدموا على مراكب الفرنج اعتقدوا أنهم منهم، هذا ... وكانت المركبة تجري بهم بسرعة مذهلة كأنها السهم إذا خرج من كبد القوس، وما زالت كذلك حتى دخلت ميناء عكا، وأفرغ ما فيها من مؤن امتلأ الشغل بها بحيراً، كفاهم إلى أن قدمت عليهم المراكب المصرية المتقدمة الذكّر، والحرب خدعة.

كانت مدينة عكا محاطة ببرجين عظيمين يُقال لأحدهما برج الديان، فوجه إليه الفرنج مركبة عظيمة لها عدة سواعد قوية، ومحركات ضخمة يستعملونها كما يريدون، ويوجهونها كما يشاؤون، إذا وجهوا ساعداً منها على شيء من الأسوار أو الأبراج صدعته وقلبه وجعلته ركاماً، ووصلوا بعد ذلك إلى ما أرادوا.

فعظم أمرها على المسلمين، واغتموا منها غمّاً شديداً، وحسبوا للتخلص منها ألف حساب.

ولم يُزالوا من أمرها في حيرة حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وأغرقها.

وكان الفرنج قد أعدوا فيها نفطاً كثيراً، وحبطاً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض، فلما أراد المسلمون أن

يستولوا على الميناء ليعزّزوا موقفهم أرسلوا النفط على مركبة الحطب فاحترقت، ثم أمدَّ الله تعالى عباده المؤمنين بسلاح خفي من عنده، ولكنه سلاح فعّال وقتاك، لقد أرسل الله ريحاً شديدة لعبت بالنيران في المركبة المحترقة وهي سائرة فارتطمت بالمركبة الأخرى فاحترقت أيضاً، وهي التي أعدوا فيها النفط والحطب، وكانوا قد أعدوا مركبة ثالثة فيها عددٌ كبير من المقاتلين، فلما أرسلوا النفط على برج الديان انعكس الأمر عليهم بقدره الله تعالى، هذا ... والريح تعمل عملها في المركبة الأولى، فما تعدتها حتى احترقت، وانتقل الحريق بفعل الرياح إلى الأخرى فغرقت، وانتشر إلى مركبة المقاتلين فتلفت، وتحطمت، وهلك من فيها، وانقلب السحر على الساحر، وردَّ الله سهامهم إلى نحورهم، وجعلهم يموتون بغیظهم، وأشبهوا من سلف من الكافرين، في قوله تعالى : (يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) ^(١) وفي قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً) ^(٢) ﷻ.

(١) الآية ٢ من سورة الحشر.

(٢) الآية ٩ من سورة الأحزاب .

تبادلُ الكتبِ بينِ صلاحِ الدينِ والقاضي الفاضلِ وبعضِ الملوكِ والسلاطينِ

أولاً - كتاب القاضي الفاضل :

لقد أقلق المسلمين في جميع الأمصار حصارُ الفرنج لمدينة عكا، وأشغَلهم بالليل والنهار طولُ مدةِ هذا الحصارِ، فكتب القاضي الفاضلُ وهو بمصرَ يديرُ شؤونها، وينوبُ عن السلطان في حكمها، ويجهزُ له ما يحتاجُ إليه من مؤنٍ حربيةٍ، وموادٍّ غذائيةٍ، ومقاتلين إن احتاجَ الأمرُ.

ولقد علَّلَ القاضي الفاضلُ طولَ مدةِ الحصارِ يعودُ إلى كثرةِ الذنوبِ والمعاصي والبعدِ عن طاعةِ الله تعالى، وارتكابِ المحارمِ بين الناسِ، ذلك أنَّ العبدَ لا ينالُ ما عندَ الله تعالى إلا بطاعته، ولا تفرجُ الكروبُ والشدائدُ إلا بالرجوعِ إليه، وامتثالِ أمره، فكيفَ لا يطولُ الحصارُ والمعاصي في كلِّ مكانٍ فاشيةً، وقد صعدَ إلى الله منها ما يُتَوَقَّعُ بعده الاستعاذةُ منه.

وفيه أنه قد بلغَهُ أنَّ بيتَ المقدسٍ قد ظهر فيه من المنكراتِ والفواحشِ والظلمِ في بلاده ما لا يمكنُ تلافيه إلا بكلفةٍ كثيرةٍ.

كتاب آخر من القاضي الفاضل

وأرسل إليه كتاباً آخر يقول فيه : (إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به.

فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه، ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، إنما النصر من عند الله. ولا تأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللفظ منه، ونستغفر الله من ذنوبنا، فلو لا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق.

كتاب آخر من القاضي الفاضل

ومن كتاب آخر يتألم فيه لما عند السلطان من الضعف في جسمه بسبب ما حُمِّلَ على قلبه مما هو فيه من الشدائد، أثابه الله بقوله : وما في نفس المملوك شائنة إلا بقية هذا الضعف الذي في جسم مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

ثم قال :

بنا معشر الخدام ما بك من أذى وإن أشفقوا بما أقول في وحدي انتهى.

فرحم الله هذا القاضي الفاضل الناصح ما أفصحه ...
!! ومن واعظ ما أنصحه ...!!! ومن عقل ما أرجحه ...!!
ثانياً - كتاب من صلاح الدين إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (ملك الأندلس وسلطان جيش الموحدين)

كتب السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى إلى يعقوب ابن يوسف ملك الأندلس يستنجده في إرسال مراكب في البحر تكون عوناً للمسلمين على مراكب الفرنج، ويستحثه عليهم أثناء قتاله معهم حول عكا، وبعث مع الكتاب هدايا

فتح بيت المقدس

ثمينة، وتحفأ سنة مع أبي الحزم عبد الرحمن بن منقذ، ذلك أن ملك الأندلس الذي كان يلقب بالمنصور قد ارتفعت شهرته ارتفاعاً هائلاً إثر انتصاره الساحق على الإسبان في معركة الأرك المشهورة، وكان صلاح الدين آنذاك يقاسي الأمرين والشدائد في حرب الفرنج الذين جاؤوا إلى بلاد الشام بأعداد غفيرة وقوى هائلة لاستعادة بيت المقدس من المسلمين كما تقدم.

وفي حصار عكا الطويل حيث جاءت الجنود الصليبية من مختلف أنحاء أوروبا لتساند الفرنج المتقاتلين مع صلاح الدين الذي احتاج إلى المدد من الرجال والمال والسلاح والعتاد والميرة، وبشكل خاص القطع البحرية ليستعين بها على قطع طريق تموين الجيوش الصليبية، وإمداداتها العسكرية فلجأ إلى ملك الموحدين في الأندلس يستنجد به ويطلب منه المدد والعون ولقد أوضح له في كتابه أنه كاتبه لأمرين :

الأول، شوق قلتم، والثاني مرأى عظيم، ثم سرّد له ما حدث في بلاد الشام من استرداد بيت المقدس من الصليبيين، وزحفهم من بلاد الغرب لاسترجاعه.

ووصف له المعارك القوية التي خاضها معهم، وذكر قلة الموارد التي يعانيها في حصار عكا، ثم قال له : (ولما كان

فتح بيت المقدس

حضرة سلطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى
مَنْ توجَّهَ إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ بِشِكْوَاهُ وَبُتِّهِ وَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَى حِمَايَةِ
نَسْلِهِ وَحَرِثِهِ، كَانَ الْمَتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْعَالِيَةِ، وَالْفِرْقَةِ
الْفَادِيَةِ، أَنْ يَمُدَّ غَرْبَ الْإِسْلَامِ بِأَكْثَرِ مِمَّا أَمَدُّ بِهِ غَرْبُ الْكُفَّارِ
الْكَافِرِينَ، فَيَمْلَأُهَا عَلَيْهِمْ جَوَارِي كَالْأَعْلَامِ، وَمَدَنًا فِي اللَّحَجِّ
سَوَائِرَ كَأَنَّهَا اللَّيَالِي ...!!

وكان عنوان الكتاب، كالتالي ... من الفقير إلى الله
تعالى يوسف بن أيوب إلى أمير المسلمين.

الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفة من استعمر
الأرض، وأغنى من أهلها مَنْ سألَهُ الْقَرْضَ، وَأَجْزَى مَنْ أَجْرَى
عَلَى يَدِهِ النَّافِلَةَ وَالْفَرْضَ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ الْمَلَةِ بِدَرَارِي الذَّرَارِي الَّتِي
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ... وَهُوَ كِتَابٌ طَوِيلٌ .

ثم ختمه وأرسله مع عبد الرحمن بن منقذ المذكور الذي
دخل على المنصور وسلم عليه، ومدحه بقصيدة قال فيها :

سَأشْكُرُ بِحَرٍّ إِذَا غُيِبَ قِطْعَتُهُ إِلَى مَعْدِنِ السَّقْوَى إِلَى كَعْبَةِ النَّدَى
إِلَى مَنْ سَمَتْ بِالْزَهْرِ مِنْهُ الْأَوَائِلُ إِلَى بَابِكَ الْمَأْمُولِ لِزَجَى الرُّوَاحِلِ
قَطَعْتُ إِلَيْكَ الْبِرَّ وَالْبَحْرَ مَوْقِنًا وَأَدَقَّ عَطَايَاكَ الْغُلَا وَالْفَوَاضِلُ
فَلَا زِلْتَ لِلْعُلَمَاءِ وَالْجُودِ بَانِيًا تَبْلُغُكَ الْأَمَالُ مَا لَمْ تَأْمَلْ

وهي قصيدة عدتها أربعون بيتاً، فأعطاه بكل بيت ألف دينار، أو ألف درهم..؟ وقال له : إنما أعطيتك لفضلك وليبتك.

ومن المؤسف أن طلب صلاح الدين، واستفائته لم يجد أذنًا مصغية ولم تلقَ قبولاً لدى الخليفة الموحيدي، بل إنه لم يجد صلاح الدين أهلاً حتى لأن يردَّ عليه التحية بتحية أهلها، وكان موقفه هذا خالياً من اللباقة السياسية أو الأخوة الإسلامية.

ذلك أنه اعتبر نفسه أفضل من صلاح الدين وأكبر من أن يردَّ عليه، لأنه كما يروى أنه غضب من كهاب صلاح الدين إذ لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين...!!

وكان القاضي الفاضل قد أشار على صلاح الدين من قبل أن لا يُراسله ولكن وقع ما وقع بمشيئة الله تعالى.

والذي يبدو والله أعلم أن صلاح الدين رحمه الله تعالى
والمسلمين في المشرق قد غَالُوا في قوة الموحدين، وأعْظَوْهم
أَكْثَرَ مما يستحقون، وذلك بانتصارهم الساحق والسريع على
الإسبان في معركة الأرك العظيمة، ولكن تلك المعركة لم تكن
حاسمة، ولم تمنع الزحف الإسباني المسيحي، أو توقف حركة
الاسترداد الإسبانية فترة طويلة، ذلك أنه لم تمضِ على وفاة
المنصور إلا فترة بسيطة حتى نشبت معركة العقاب المشؤومة
والتي خسرها الموحدون، وكانت فاتحة ضياع حواضر الأندلس
الكبرى كقرطبة وإشبيلية وغيرهما !!...

انتهى من كتاب الوثائق السياسية والعسكرية ... بتصرف.

سؤال وجواب

يبدو أن المنصور كان بحاجة ملحة إلى أساطيله لحماية
شواطئه، وردّ عدوان الإسبان والبرتغاليين، وصدّ هجماتهم
الكثيرة والمتكررة، وهي مجموعها أسباب معقولة لعدم إرساله
المساعدة إلى صلاح الدين.

أما أسلوبُهُ بعدمِ ردِّ التحيةِ أصلاً، أو عدمِ ردِّ الجوابِ
 بالكليةِ فهو أسلوبٌ غيرُ لائقٍ منه كسلطان.
 وأعتقدُ أن المنصورَ له وجهةُ نظرٍ أخرى في عدمِ
 مساعدةِ صلاحِ الدينِ ودعمِهِ بالمالِ والعتادِ والرجالِ، ليس من
 بابِ الدفاعِ عنه، ولكن بالنظرِ والتأملِ في عقيدتهِ وقناعتهِ.
 ذلك أن أهلَ المغربِ كانوا يهتمون أهلَ المشرقِ
 بالانحرافِ عن العقيدةِ الإسلاميةِ الصحيحةِ، ويهتمونهم بالبدعِ
 والضلالِ والانحرافِ والزيغِ، ولقد روي أن المنصورَ ذكرَ
 للموحدينَ رغبتهُ بالرحلةِ إلى المشرقِ، وجعل يذكرُ البلادَ
 المصريةَ وما فيها من البدعِ والضلالاتِ، ويقولُ لهم : نحنُ إنْ
 شاءَ اللهَ مطهروها ولم يزلْ هذا عزمُهُ حتى مات. ^(١)

وذكر ابنُ خلكانَ أن المنصورَ استاءَ من صلاحِ الدينِ
 لأنه لم يخاطبهُ بأميرِ المؤمنين، فعزَّ عليه ذلك ولم يجبهُ. ^(٢)
 يقولُ الدكتور محمد ماهر حمادة : (ونحن وإن كنا
 لانعتقدُ أن المنصورَ الموحديَّ لم ينجذْ صلاحُ الدينِ بسببِ
 ذلك، ولكننا نعتقدُ أنه لم يرسلْ له رسالةً جوابيةً ولم يردَّ على

^(١) الوثائق السياسية والعسكرية.

^(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٢.

التحية بمثلها لعدة أسباب، أولها : الغرور الذي أصاب المنصور بعد معركة الأرك، فجعل ينظر لنفسه بمنظار أعلى مما هي عليه. ثانيها : أنه كان يعتقد أن مسلمي المشرق الإسلامي ليسوا أسوياء في عقيدتهم وإسلامهم وأن واجباً، وبالتالي واجب كل مسلم حقيقي احتلال بلادهم وتطهيرها من الملاحدة والبدع، وحمل الكافة على القاعدة الشرعية.

وأخيراً لأن صلاح الدين لم يلقبه بأمير المؤمنين. ويتابع قائلاً : وعندنا وثيقة من نفس العصر هي رسالة أرسلها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين حول نفس الموضوع موضوع تلقيب صلاح الدين المنصور الموحد بلقب أمير المؤمنين.

ويبدو لنا أنه ثار جدل عنيف حول هذا الموضوع بين أتباع صلاح الدين وأن صلاح الدين مال إلى هذا الرأي، ولكن لم يقف بوجه هذا الاتجاه إلا القاضي الفاضل في رسالة وجهها إلى صلاح الدين حول هذا الموضوع ، فهو يذكر في رسالته أنه غير معترض على الرسالة المغربية، ولكن اعتراضه على إضافة لفظ أمير المؤمنين.

وَيُذَكِّرُ أَنَّهُ خَاطَبَ الْمَنْصُورَ بِشَكْلِ فَخْمٍ كُلِّ الْفَخَامَةِ،
وَبَشَكْلِ يَفُوقُ الْوَصْفَ، وَبِمَا لَا يُمْكِنُ مَخَاطَبَةُ مَخْلُوقٍ بِأَكْثَرِ مِنْهُ.
وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَمِيرَ نَجَّمَ الدِّينَ وَهُوَ الَّذِي كَانَ
مِنْ الْمَفْرُوضِ أَنْ يَحْمَلَ الرِّسَالَةَ إِلَى الْمَغْرِبِ، اعْتَرَضَ عَلَى عَدَمِ
تَلْقِيْبِ الْمَنْصُورِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاعْتَرَضَ مَعَهُ آخَرُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ
الْعَادِلُ أَخُو صِلَاحُ الدِّينِ إِذْ أَصْرُوا عَلَى ذَلِكَ.

وَيَتَابِعُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ اعْتِرَاضَاتِهِ الثَّانَوِيَّةَ، وَيَشْكُ فِي
إِمْكَانِيَّةِ وَصُولِ آيَةٍ نَجْدَةً قَبْلَ سِتِّينَ، وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ
الْأَحْوَالَ وَيَقُولُ : إِذَا أَصْرَّ صِلَاحُ الدِّينِ عَلَى تِلْكَ اللَّفْظَةِ فَهُوَ
يَسْتَقِيلُ مِنْ كِتَابَتِهَا، وَيَطْلُبُ إِلَى السُّلْطَانِ أَنْ يَكْلِفَ غَيْرَهُ مِنْ
الْكِتَابِ كِتَابَتَهَا، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ يَلُودُ بِالسُّلْطَانِ أَلَّا يَسْمَحَ
لِمُخَالَفِي رَأْيِهِ أَنْ يَنْتَقِمُوا مِنْهُ لِأَنَّهُ خَالَفَهُمْ.

الخاتمة

أقبل فصل الشتاء وحصارُ الفرنج مضروبٌ حولَ مدينة عكا، فلما اشتدَّ البردُ انشَمَرَتْ مراكِبُهُم عنِ البلدِ خوفاً من الهلاكِ بسببِ اغتلام^(١) البحر، فسأل المسلمون صلاحَ الدين أن يريحَهُم مما هم فيه من الحصارِ الطويل، والقتالِ المستمرِّ ليلاً ونهاراً، وأن يبدلَ بهم جيشاً بجيشٍ آخرَ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً من المقاتلين، فرقَّ لهم، وعَزَمَ على استبدالِهِم، وكان قصدهُ خيراً، ولكن من يدري...؟ إن الغيبَ لا يَعْلَمُهُ إلا اللهُ، ولربما كان ذلك الرأيُ غيرَ صائبٍ، فإن هؤلاء المقاتلين لهم خيرةٌ طويلةٌ بالبلد، وتمرسٌ على القتالِ، وإطلاعٌ على طريقة العدو من كَر وفر، وهجوم وانسحاب، كما أنه أصبحَ لديهم من المؤنِ والموادِ الغذائية ما يكفيهِم لسنةٍ كاملة، فليس ثمةَ مبررٍ لذهابِهِم وبجيءِ غيرِهِم.

ولقد صدف أن جاءَهُم مراكبٌ من مصرَ تحملُ مؤناً كثيرةً وميرةً تكفيهِم سنةً أخرى، فقدَّر اللهُ ﷻ، وله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، أنهما لما توسطتِ البحرَ، واقتربتْ من الميناءِ هاجَتْ عليها ريحٌ شديدةٌ فاضطربتْ وتصادمتْ فتكسَّرتْ وغرقتْ، وغرقَ ما كان فيها من الميرةِ والجنودِ والبحارةِ فحزنَ

(١) اغتلم البحر : هاج ، واغتلامه : هيجانه.

المسلمون لذلك حُزناً شديداً، واغتموا منه غمّاً كبيراً، واشتدَّ الأمرُ ضيقاً وحرَجاً، وتسرَّبَ إلى بعضهم الضعفُ والوهنُ، وأصيبوا باليأسِ والقنوطِ، وتفاقم الخطبُ، ومرضَ السلطانُ صلاحُ الدينِ مرضاً شديداً أتعبه، وأقعدَه عن القتالِ، وكان ذلك لصالِحِ الصليبيين مائةً بالمائة، ولكنَّ قَدَرَ اللهُ وما شاء فعل، ليَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والذي زاد الأمرَ تعقيداً، وأضافَ هما إلى همٍّ أنْ حدثَ وسَقَطَتْ ثُلُمَةٌ عَظِيمَةٌ من سورِ عكا، وفي الظروفِ الصعبةِ والقاسيةِ التي تمرُّ بالمسلمين ويعانون منها المصائبُ والشدائدُ، فاغتممَ الفرنجُ هذه الفرصةَ، وحاولوا أنْ يدخلوا عكا من تلك الثُلُمَةِ، فتصدَّى لهم المسلمون وسدَّوها بصدورهم، وقتلوا دونهاً بنحورهم، ومازالوا يدافعون عنها لمنعِ الفرنجِ من اختراقها حتى صَدَّوهم عنها، فكان منهم مَنْ يُقاتلُ ومنهم من يساهمُ في البناءِ حتى أعادوا بناءَها على أشدِّ ما كانتْ وأقوى وأمنعَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين .

وفي الرسالةِ القادمةِ سوف نعلمُ ما كان من أمرِ هذا الحصارِ الطويلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

تمت الرسالةُ والحمدُ لله ربِّ العالمين

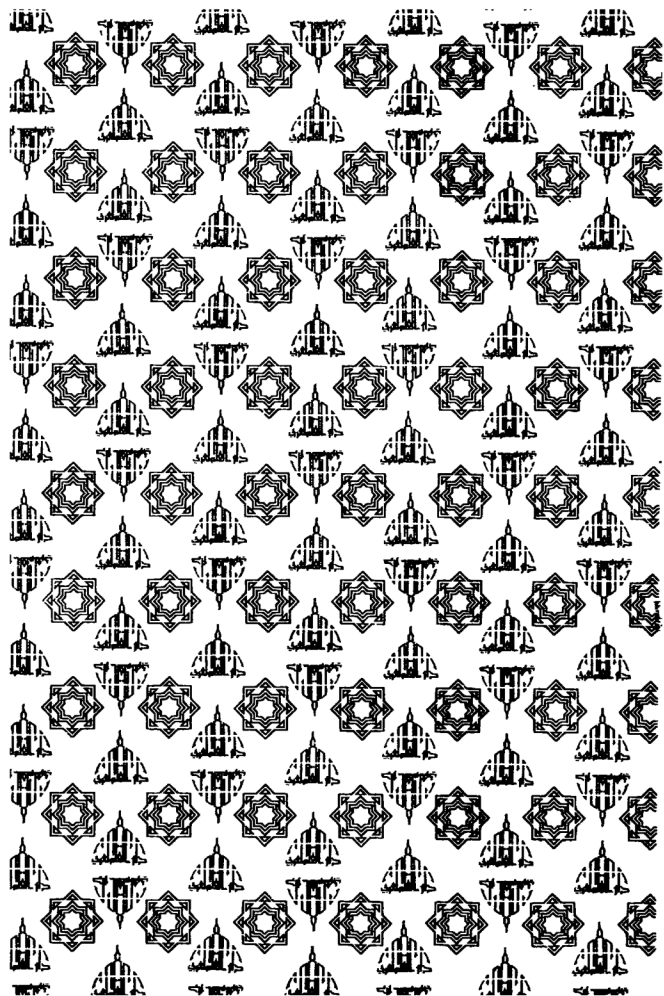
وإلى اللقاء مع معركةٍ أخرى من معاركِ الإسلامِ الخالدةِ

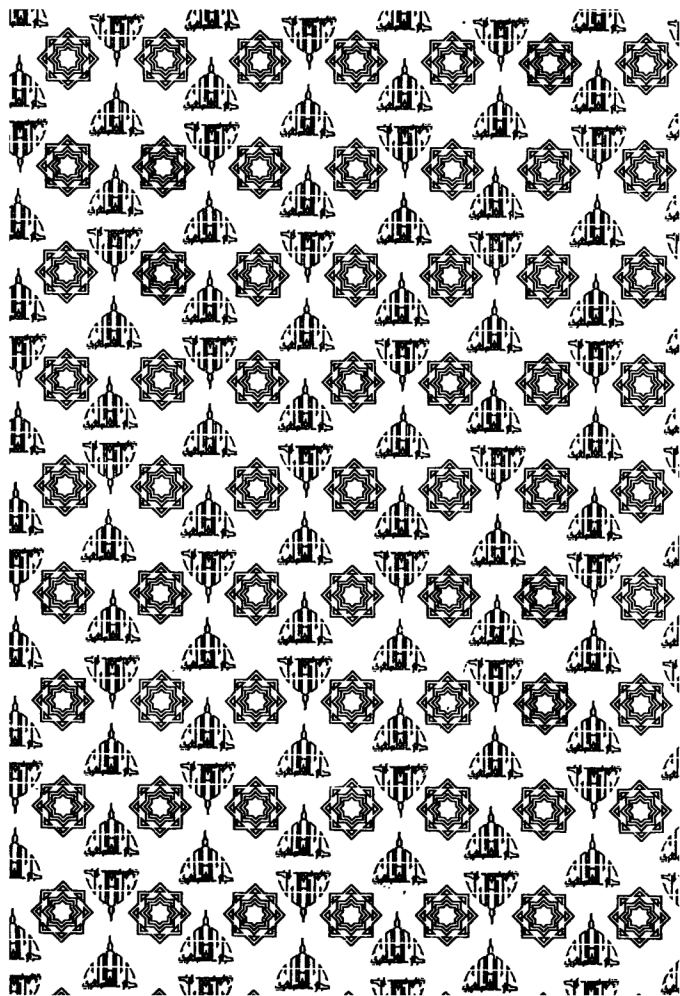
(الفهرس)

رقم الصفحة	
٣	معركة فتح بيت المقدس
٣	تمهيد
٥	فضائل بيت المقدس
١١	تحويل القبلة
١٤	أهمية بيت المقدس
١٦	بين يدي معركة فتح بيت المقدس
١٩	الاستعداد للفتح
٢١	هدم حصن الأحزان
٢٣	ما بعد وقعة حطين
٢٦	المسير إلى بيت المقدس
٢٩	بدء القتال
٣١	استسلام الفرنج
٣٤	الصلح
٣٩	شروط الصلح
٤١	تطهير المسجد الأقصى
٤٥	أول جمعة أقيمت ببيت المقدس
٤٧	نص الخطبة
٥٠	من غرائب التفسير
٥٢	حصار مدينة صور

فتح بيت المقدس

٥٤	حصار حصن كوكب
٥٦	فتح حصن برزية
٥٧	صلح إنطاكية
٥٨	فتح صفد وحصن كوكب
٦٠	موقعة عكا
٦٥	الفتنة
٦٨	صد هجوم الفرنج
٧٢	هلاك ملك ألمانيا
٧٦	موقف ملوك الافرنج من جند الألمان
٧٦	استئناف القتال
٧٩	معركة البحر
٨٣	تبادل الكتب بين صلاح الدين والقاضي الفاضل وبعض الملوك والسلاطين :
٨٣	أولاً- كتاب القاضي الفاضل
٨٤	كتاب آخر من القاضي الفاضل
٨٥	كتاب آخر من القاضي الفاضل
٨٥	ثانياً- كتاب من صلاح الدين إلى يعقوب بن المؤمن بن عبد المؤمن ملك الأندلس
٨٩	سؤال وجواب
٩٣	الخاتمة
٩٥	الفهرس





معارك عربية إسلامية خالدة

للغفار واليا فعين

معارك العرب في القرنين الأولين
معارك العرب في القرنين الثاني والثالث
معارك العرب في القرنين الرابع والخامس
معارك العرب في القرنين السادس والسابع
معارك العرب في القرنين الثامن والتاسع
معارك العرب في القرنين العاشر والحادي عشر
معارك العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر
معارك العرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر
معارك العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر
معارك العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
معارك العرب في القرنين العشرون والحادي والعشرون

Bibliotheca Alexandrina



0606385

